ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ٤ ، السنـــــة : ٤٨

ربيع الآخر ١٤٤٥هـ ، أكتوبر – نوفمبر ٢٠٢٣م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٣٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٣٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت
Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- فاعتبروا يا أولي الأبصار — التحرير — ٣

كلمة العدد

- القدوة الحسنة... ما أحوج المسلمين إليها؟ — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

الفكر الإسلامي

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ١٠

دراسات إسلامية

- الخليفة هارون الرشيد والإمام سفيان الثوري — الدكتور عبد الرحمن عميرة — ١٤
- من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند — الأستاذ سيد محبوب الرضوي الديوبندي رحمه الله — ١٨
- شبهات حول التقليد — الشيخ الكبير المربي الجليل العلامة أشرف على التهانوي — ٢٣
- الإمام البزازي وكتابه «الفتاوى البزازية» — الأستاذ عبد الرزاق القاسمي الأمروهي — ٣١
- الأسرة بين الشرق والغرب — الأستاذ محمد شعطيط — ٣٦
- الحروف المقطعة — الدكتور عبد العزيز بن عبد الله العمار حفظه الله — ٤٠
- قصة التاريخ الهجري — الدكتور مسعود صبري — ٥١

إشراقة

- التجسس ... بين الهدم والبناء — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ٥٦

كلمة المحرر

فاعتبروا يا أولي الأبصار

كنت أتصفح بعض المجلات العربية القديمة، فإذا أنا بمقالٍ يقول صاحبه بالحرف الواحد: «حدثني صديق جاء من الصين أنه لم يشاهد فيها فيلمًا سينمائيًّا أو مسرحيةً تناقض أفكار الصينيين الجديدة عن الحياة، على الرغم من حداثة سيطرة المبدإ الشيوعي على حياتهم، و سعة الرقعة الصينية و كثرة سكانها».

اقرأ هذه الحكاية، ثم انظر ما أغيرَ هذه الأمة – رغم كفرها وشركها – على ثقافتها وحضارتها، تربأ بنفسها عن اللهث وراء ما يعارض رؤيتها عن الحياة. ثم انظر في أحوال المسلمين – أفرادًا وجماعاتٍ ودولًا – ما أكثر منهم من يندفع إلى الحضارة الغربية والشرقية التي تعارض الحضارة الإسلامية على طول الخط وعرضه، ويلهث وراءها، ويتهافت عليها تهافت الفراش على النار، وقد أسكرت دعواتها البراقة الفارغة عقلَه واستهوت لبَّه، وملكت عليه فؤاده، وفَتنتْه عن دينه بهرجتُها، فلايرى الخير للمسلمين إلا في تشرب ما فيها من شر وبلاء وخواء، وتيه وضياع.

ولقد صدق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قال: «لتتبعن سنن من قبلكم، الشبر بالشبر، والذراع بالذراع، والباع بالباع، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتموه». قالوا: يا رسول الله، أمن اليهود والنصارى؟ قال: «من إذًا» (مسند أحمد:١٠٨٢٧).

إن الدول الإسلامية التي تتسابق إلى ما تسميه بالانفتاح، وإلى فتح أبوابها على مصراعيها على كل حضارة وافدة ماجنة، وعلى أمواج الفساد والسفور والخلاعة والميوعة التي يسوِّقها الشرق والغرب في غلاف من السياحة و رفع سقف الدخل القومي- إنها لن تجلب بذلك إلا طمس ثقافتها وأصالتها و حضارتها التي طالما اعتزت وافتخرت بها. فإنك لاتجني من الشوك العنب كما يقول المثل العربي.

وما قصة البلد العربي – المسلم طبعًا- ببعيدة، الذي خلع ربقة الإسلام وحضارته، والذي جاءت حكومته -متمثلة في وزير الداخلية العريض القفا- بقرار يفطس من الضحك: «إنه يتوجب على كل مواطن استصدار بطاقة مصلٍ تحمل صورة المصلي وعنوانه، واسم المسجد الذي ينوي ارتياده».

سبحان الله، هل سمعت بلدًا – شرقيًّا أو غربيًّا، نصرانيًّا أو يهوديًّا، ملحدًا أو بوذيًّا – فرض على أهله استصدار بطاقة لأداء عباداته وشعائر دينه؟

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى تدهور الأخلاق والنفوس وضياعها، وأن الدول التي تسرع الخطا إلى التخلي عن دينها وعقيدتها وحضارتها وثقافتها تجني على نفسها، وتخرب بيتها بيدها، وتبحث عن حتفها بظلفها، و تودِّع شريعةَ الآداب والأخلاق إلى شريعة الناب والغاب والظفر و المخلب، وتجري بسرعة الصاروخ إلى متحف العجائب والغرائب، فليس مكانها إلا بجوار الديناصورات.

سبحان الله الذي يحول بين المرء وقلبه، ويقلب الأحوال والأوضاع. اللّٰهم أرنا الحق حقًّا، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا، وارزقنا اجتنابه. [التحرير]

(تحريرا في الساعة العاشرة صباحا من يوم الأحد: ١٧/صفر ١٤٤٥هـ= ٣/سبتمبر ٢٠٢٣م)

القدوة الحسنة ... ما أحوج المسلمين إليها؟

القدوة كلمة تدور مشتقاتها حول معنى الأسوة، والاقتداء هو التأسي بالآخر، واتخاذه نموذجًا يأخذ به في القول والعمل، ويتشبه به في دله وسمته وفي أخلاقه وأطواره، وفي جميع شعب حياته.

والناظر في النصوص الشرعية يتجلى له بكل وضوح تركيزها الشديد على أهمية القدوة والأسوة في حياة الفرد والجماعة. ولو أن البشر استغنى عن القدوة والأسوة في حياته الفردية و الجماعية، لكفاه أن ينزل الله تعالى كتابه الهادي للبشرية لا على لسان رسول من الرسل ونبي من الأنبياء عليهم السلام؛ ولكن الله تعالى الخالق الخبير بظواهر الإنسان وبواطنه وسره وعلانيته عَلِمَ حاجة البشر إلى التأسي بغيره، والاقتداء بمن يقدم له النموذج الأمثل لتطبيق أحكام الله تعالى وشريعته في نفسه أولا ثم في غيره من بني جنسه.

وكان الأنبياء عليهم السلام قدوة وأسوة حسنة لأممهم، وأقوامهم الذين بعثوا إليهم لدعوتهم إلى الله تعالى وعبادته وحده، وللقضاء على الانحرافات العقدية والعملية في حياتهم الفردية و الجماعية. فكانوا - إذا أمروهم بشيء- أول من يأخذون به ويطبقونه في حياتهم، وإذا نهوا عن شيء كانوا أول من ينتهي ويمسك عنه، ويطبق هذا النهي على نفسه قبل غيره.

فهذا شعيب عليه السلام بعثه الله تعالى إلى مدين، فدعاهم إلى الله تعالى وعبادته وحده، ونهاهم عن نقص المكيال والميزان، وحذرهم عذاب يوم محيط، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

يقول ابن كثير في تفسيره: «وقال الثوري: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ أي: لا أنهاكم عن شيء، وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم، كما قال قتادة في قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ يقول: لم أكن لأنهاكم عن أمر وأركبه، ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ أي: فيما آمركم وأنهاكم، إنما مرادي إصلاحكم جهدي وطاقتي، ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ﴾ أي:

في إصابة الحق فيما أريده ﴿إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ في جميع أموري، ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ أي: أرجع، قاله مجاهد وغيره.

وقال في الدر المنثور: عَن قَتَادَة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ يَقُول: لم أك لأنهاكم عَن أَمر وأركبه. وَأخرج ابْن أبي حَاتِم عَن مَسْرُوق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَن امْرَأَة جَاءَت إِلَى ابْن مَسْعُود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فَقَالَت: أتنهى عَن المواصلة؟ قَالَ: نعم، قَالَت: فَلَعَلَّهُ فِي بعض نِسَائِك فَقَالَ: مَا حفظت إِذًا وَصِيَّة العَبْد الصَّالح ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾اهـ.

ونظرة متأنية في القرآن الكريم حول القدوة تؤكد أن القرآن الكريم فيه كثير من النماذج بالترغيب في الاقتداء بالرسل والأنبياء عمومًا، وأن الأنبياء عليهم السلام كانوا أسوة وقدوة حسنة لأممهم، وهم مأمورون باتباعهم، وأمر الله تعالى نبيه محمدا ﷺ بالاقتداء و التأسي بهذه النخبة والصفوة من عباده سبحانه تعالى، في إشارة إلى أنه ﷺ كان بدوره يحمل جميع الصفات والخصائص والميزات التي يجب أن تتوفر فيمن يتصدى لدعوة الناس إلى الخير والصلاح وعبادة الله تعالى، وينهاهم عن مساوئ الأخلاق والرذائل والقبائح.

ويقول الله تعالى- بعد أن سمى كثيرًا من أنبيائه ورسله-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٩٠].

قال ابن كثير في تفسير الآية: «ثم قال تعالى مخاطبا عبده ورسوله محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني: الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ أي: هم أهل الهداية لا غيرهم، ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ أي: اقتد واتبع. وإذا كان هذا أمرًا للرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فأمته تبع له فيما يشرعه لهم ويأمرهم به. وقال البخاري عند هذه الآية: إن مجاهدًا سأل ابن عباس: أفي (ص) سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ﴾ إلى قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ ثم قال: هو منهم. وعن مجاهد قال: قلت لابن عباس، فقال: نبيكم صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ممن أُمر أن يقتدي بهم.

وقال ابن عاشور في تفسير الآية:

«وقوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ تفريع على كمال ذلك الهدى، وتخلص إلى ذكر حظ محمد ﷺ من هدى الله بعد أن قدم قبله مسهب ذكر الأنبياء وهديهم إشارةً إلى علو منزلة محمد ﷺ، وأنها منزلة جديرة بالتخصيص بالذكر حيث لم يذكر مع الأنبياء المتقدمين، وأنه جمع هدى الأولين، وأكملت له الفضائل، وجمع له ما تفرق من الخصائص و المزايا العظيمة. وفي إفراده بالذكر وترك عده مع الأولين

رمز بديع إلى فذاذته وتفرد مقداره، و رعي بديع لحال مجيء رسالته بعد مرور تلك العصور المتباعدة أو المتجاورة، ولذلك قدم المجرور وهو ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ على عامله، للاهتمام بذلك الهدى؛ لأنه هو منزلتك الجامعة للفضائل و المزايا، فلا يليق به الاقتداء بهدى هو دون هداهم. ولأجل هذا لم يسبق للنبي ﷺ اقتداء بأحد ممن تحنفوا في الجاهلية أو تنصروا أو تهودوا... وفي قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ تعريض للمشركين بأن محمدًا ﷺ ما جاء إلا على سنة الرسل كلهم، وأنه ما كان بدعًا من الرسل. وأمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالاقتداء بهداهم يؤذن بأن الله زوى إليه كل فضيلة من فضائلهم التي اختص كل واحد بها سواء ما اتفق منه واتحد، أو اختلف وافترق، فإنما يقتدى بما أطلعه الله عليه من فضائل الرسل وسيرهم، وهو الخلق الموصوف بالعظيم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]... قال الغزالي في «المستصفى»: «أراد بالهدى التوحيد ودلالة الأدلة العقلية على الوحدانية والصفات؛ لأنه تعالى أمره بالاقتداء بهداهم، فلو كان المراد بالهدى شرائعهم، لكان أمرًا بشرائع مختلفة وناسخة و منسوخة، فدل أنه أراد الهدى المشترك بين جميعهم»اهـ.

ويقول العلامة شبير أحمد العثماني رحمه الله في تفسير الآية: «إن الأنبياء عليهم السلام جميعًا مشتركون في العقائد وأصول الدين والمقاصد الكلية، فدستورهم الأساسي واحد، وأمِر كل نبي بالسير عليه، وأنت أيضًا مأمور بالسير على هذه الطريقة. فكأن الآية فيها تنبيه على أن سبيلك لاتختلف عن سبيل الأنبياء السابقين من حيث المبدإ والأساس، وأما الفروع فاختلفت من دين إلى آخر بما يناسب كل زمان واستعداد أهله، ولابأس بأن يحصل مثل هذا الاختلاف اليوم. وأخذ أهل العلم بعموم الآية أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أمِر بشيء من شرائع مَن قبلنا؛ فإنه حجة في حق الأمة أيضًا إذا لم ينكر عليه الشارع جزءًا أو كلا».

ويقول الله تعالى مخاطبًا نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف:٣٥].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مثبته على المضيّ لما قلَّده من عبْء الرسالة، وثقل أحمال النبوّة صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وآمره بالائتساء في العزم على النفوذ لذلك بأولي العزم من قبله من رسله الذين صبروا على عظيم ما لَقُوا فيه من قومهم من المكاره، ونالهم فيه منهم من الأذى والشدائد (فَاصْبِرْ) يا محمد، على ما أصابك في الله من أذى مكذّبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم

بالإنذار ﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ على القيام بأمر الله، والانتهاء إلى طاعته من رسله الذين لم ينههم عن النفوذ لأمره، ما نالهم فيه من شدّة. و قيل: إن أولي العزم منهم، كانوا الذين امتُحِنوا في ذات الله في الدنيا بِالمحَن، فلم تزدهم المحن إلا جدّا في أمر الله، كنوح وإبراهيم وموسى ومن أشبههم».

وقال ابن كثير: «ثم قال تعالى آمرًا رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: على تكذيب قومهم لهم. وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال، وأشهرها أنهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وخاتم الأنبياء كلهم محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قد نص الله على أسمائهم من بين الأنبياء في آيتين من سورتي «الأحزاب» و«الشورى»، وقد يحتمل أن يكون المراد بأولي العزم جميع الرسل، وتكون (من) في قوله: (مِنَ الرُّسُلِ) لبيان الجنس، والله أعلم. وعن مسروق قال: قالت لي عائشة رضي الله عنها: ظل رسول الله ﷺ صائمًا ثم طواه، ثم ظل صائمًا ثم طواه، ثم ظل صائمًا، ثم قال: «يا عائشة، إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد. يا عائشة، إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها والصبر عن محبوبها، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم، فقال:﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ وإني - والله- لأصبرن كما صبروا جهدي، ولا قوة إلا بالله».

وقال العلامة شبير أحمد العثماني في تفسير الآية: «أي بعد أن علمت أن المنكرين لابد وأن ينزل عليهم العقاب، سواء في الآخرة أو في الدنيا أيضًا، فلاتستعجل في أمرهم؛ بل اصبر إلى الأجل المسمى، كما صبر أولو العزم من الرسل. وذهب بعض السلف إلى أن الرسل كلهم من أولي العزم. وعرفا يطلق على خمسة منهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. وهم يستبطئون العذاب اليوم في الدنيا، فإذا وقعت الساعة قالوا: لم نمكث في الدنيا إلا ساعةً، أو يرون المكث في القبر ساعةً. والأجل المنقضي قليل في العادة، وخاصة أيام الشدة فإن أيام الرخاء تبدو قصيرة. وها قد نصحنا لكم، وشرحنا لكم الخير والشر، فالهلاك على من أعرض عنه، وقد أتممنا الحجة عليه، ولانؤاخذ أحدًا من غير جريرة، ولانهلك إلا من أصر على الهلاك».

وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة:٤].

يقول العلامة أشرف علي التهانوي في تفسير هذه الآية:

«اعلم أن الله تعالى أنزل الأحكام، وهي دستور حياة متكامل، وجعل الأسوة والنموذج العملي في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا وافق عملك هذه القدوة والنموذج، كان صوابًا و صحيحًا، وإلا كان باطلًا. فإذا صليت صلاة توافق صلاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صحت، وإلا ردت ولم يعبأ بها. وإذا وافق ذكرك لله تعالى ذكرَ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبها ونعمت، وإلا كان معصية وإثمًا، ألاترى أن المصلي إذا سجد سجدةً واحدةً بدلا من السجدتين في الصلاة، لم تصح صلاته. ولو قرأ المرء القرآن الكريم وهو جنب أثم ولم يؤجر عليه،- وقس عليه أسماء الله تعالى فهي توقيفية، فلايجوز أن تسمي الله تعالى بما لم يرد به النص-. ولايصح صيامك إلا إذا صمت صومًا يوافق صوم رسول الله ﷺ، ولايصح حجك إلا إذا حججت على وفق حج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهبْ أن المرء حجَّ ولم يحرم، لم يصح حجه، وقس عليه الزكاة تصح إذا وافق أداؤها توجيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فلو أن أحدا أنفق ما ملكت يمينه على خلافه لم تبرأ ذمته منها. وهذا حكم الأركان الظاهرة، وقس عليه الأعمال الباطنة وكذلك المعاملات والشؤون الاجتماعية. وإن الله تعالى لم يبعث لنا ملكًا رسولًا، فإنه لو أرسل الملك رسولا لم يصح أن يكون لنا أسوةً ونموذجًا، فإنه في غنى عن الطعام والشراب والزواج وغيرها من الشؤون الاجتماعية، فلايسعه في ذلك إلا أن يتلو علينا أحكام الله تعالى. وكان يغني عنه إنزال الكتاب فقط، فينزل علينا الكتاب الذي يحمل الأحكام الإلهية مسجلة مكتوبة، وما علينا إلا أن نقرأها ونعمل بها، ولن يزيد نزول الملك على ذلك شيئا» (أشرف التفاسير ٤/١٥٨).

وجعل الله تعالى في نبيه محمد ﷺ أسوة وقدوة للمؤمنين، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

وكان أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن بعدهم أحرص الناس على اتباع رسول الله ﷺ والتأسي به، يتتبعون أسوته ويأخذون بها. ذكر الإمام مسلم قصة طريفة في هذا الصدد عن زرارة أنّ سعد بن هشام بن عامر أراد أن يغزو في سبيل الله. فقدم المدينة . فأراد أن يبيع عقارًا له بها. فيجعله في السّلاح والكراع، ويجاهد الرّوم حتّى يموت. فلمّا قدم المدينة، لقي أناسًا من أهل المدينة. فنهوه عن ذلك وأخبروه؛ أنّ رهطًا ستّة أرادوا ذلك في حياة نبيّ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنهاهم نبيّ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و قال: «أليس لكم فيّ أسوة؟». فلمّا حدّثوه بذلك راجع امرأته. وقد كان طلّقها وأشهد

على رجعتها. فأتى ابن عبّاس فسأله عن وتر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟. فقال ابن عبّاس- رضي الله عنهما-: ألا أدلّك على أعلم أهل الأرض بوتر رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟. قال: من؟. قال: عائشة. فأتها فاسألها. ثمّ ائتني فأخبرني بردّها عليك. فانطلقت إليها. فأتيت على حكيم بن أفلح فاستلحقته إليها، فقال: ما أنا بقاربها؛ لأنّي نهيتها أن تقول في هاتين الشّيعتين شيئًا فأبت فيهما إلّا مضيّا. قال: فأقسمت عليه، فجاء، فانطلقنا إلى عائشة، فاستأذنّا عليها. فأذنت لنا، فدخلنا عليها. فقالت: أحكيم؟ -فعرفته- فقال: نعم. فقالت: من معك؟. قال: سعد بن هشام. قالت: من هشام؟. قال: ابن عامر. فترحّمت عليه. وقالت خيرًا. (قال قتادة: وكان أصيب يوم أحد). فقلت: يا أمّ المؤمنين، أنبئيني عن خلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قالت: ألست تقرأ القرآن؟. قلت: بلى، قالت: فإنّ خلق نبيّ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان القرآن، قال: فهممت أن أقوم، ولا أسأل أحدًا عن شيء حتّى أموت ثمّ بدا لي فقلت: أنبئيني عن قيام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقالت: ألست تقرأ: (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ)؟. قلت: بلى. قالت: فإنّ الله - عزّ وجلّ- افترض قيام اللّيل في أوّل هذه السّورة. فقام نبيّ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه حولًا. وأمسك خاتمتها اثني عشر شهرًا في السّماء. حتّى أنزل الله، في آخر هذه السّورة، التّخفيف. فصار قيام اللّيل تطوّعًا بعد فريضة. قال: قلت: يا أمّ المؤمنين، أنبئيني عن وتر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقالت: كنّا نعدّ له سواكه وطهوره. فيبعثه الله ما شاء أن يبعثه من اللّيل. فيتسوّك ويتوضّأ ويصلّي تسع ركعات. لايجلس فيها إلّا في الثّامنة . فيذكر الله ويحمده و يدعوه. ثمّ ينهض ولا يسلّم. ثمّ يقوم فيصلّي التّاسعة. ثمّ يقعد فيذكر الله ويحمده ويدعوه. ثمّ يسلّم تسليمًا يسمعنا. ثمّ يصلّي ركعتين بعد ما يسلّم وهو قاعد. فتلك إحدى عشرة ركعة، يا بنيّ. فلمّا أسنّ نبيّ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخذه اللّحم، أوتر بسبع. وصنع في الرّكعتين مثل صنيعه الأوّل. فتلك تسع، يا بني. وكان نبيّ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا صلّى صلاةً أحبّ أن يداوم عليها. وكان إذا غلبه نوم أو وجع عن قيام اللّيل صلّى من النّهار ثنتي عشرة ركعةً. ولا أعلم نبيّ الله ﷺ قرأ القرآن كلّه في ليلة. ولا صلّى ليلة إلى الصّبح. ولا صام شهرًا كاملًا غير رمضان. قال: فانطلقت إلى ابن عبّاس- رضي الله عنهما- فحدّثته بحديثها. فقال: صدقت. لو كنت أقربها أو أدخل عليها لأتيتها حتّى تشافهني به. قال: قلت: لو علمت أنّك لاتدخل عليها ما حدّثتك حديثها.

فما أحوجنا نحن المسلمين إلى هذه القدوة والنموذج العملي في مجتمعاتنا وبيئاتنا؟!

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

من ظلال التفسير

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)
تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَـٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾

أي هذا هو الأفضل، وأما إذا لم يكونا اثنين أو كانا غير مرضيين جاز الإيصاء، والمراد بالشهداء هنا الوصي، وعبر عن إقراره وإظهاره بالشهادة.

فائدة: أي من المسلمين.

فائدة: أي غير مسلم.

فائدة: أي بعد صلاة العصر، فإنه وقت اجتماع وقبول، فربما لايحلفان على الكذب خوفًا، أو بعد صلاة من الصلوات أو بعد الصلاة في الدين الذي يعتنقه الوصي.

فائدة: أي ما دام مصيركم جميعًا إلى الله تعالى فأصلحوا أعمالكم قبل المصير إليه، ومن أهم هذه الأمور الإيصاء بالأمر الواجب، وما يتعلق به. وهذه الآيات ترشد إلى الوجه الأحسن للوصية، أي إذا دفع المسلم ماله ونحوه حين موته إلى أحد، فيستشهد مسلمين مرضيين، فإن لم يجد مسلمين -كما في السفر ونحوه-، فليستشهد كافرين. ثم إن شك الورثة في الوصيين أنهما كتما شيئًا من مال الوصية وادعوا ذلك، ولم يكن لهم شهداء على دعواهم، يحلف الوصيين على أنهما لم يكتما شيئًا، ولايكذبان لطمع أو قرابة، وأنهما آثمان إن فعلا ذلك.

فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾

فائدة: لابأس إن كان واحدًا.

فائدة: أي إذا تبين بالقرائن والآثار كذب الأوصياء، ولم يتمكنا من إثبات صدقهما بالشهادة الشرعية، استحلف ورثة الميت على أنهم لا علم لهم بواقع دعوى الأوصياء، وأن شهادتهم أحق وأولى بالقبول من شهادة الأوصياء.

وسبب نزول هذه الآيات أن رجلًا اسمه بُديل

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

خرج مع رجلين - تميم وعدي وكانا نصرانيين - بالتجارة إلى الشام، فمرض بديل بالشام.

فعمل فهرسًا لمتاعه، ووضعه فيه، ولم يطلع صاحبيه عليه، فلما اشتد به المرض أوصى إلى صاحبيه النصرانيين بأن يسلِّما ماله كله إلى ورثته، فجاءا بالمتاع ودفعاه إلى الورثة إلا جامًا من فضة منقوشًا بالذهب، أخذاه من متاعه، وعثر الورثة على الفهرس في متاعه، فسألوا الأوصياء: هل باع الميت شيئًا من ماله؟ أو طال مرضه، فأنفق على العلاج والدواء؟ فقالا: لا. ورفع الأمر إلى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولم يكن للورثة شهود، فاستحلف النصرانيان على أنهما لم يخونا مال الميت، ولا كتما شيئا منه، وصدر الحكم بناء على حلفهما. ثم ظهر أنهما باعا الجام صائغا في مكة. فقيل لهما في ذلك، فقالا: اشتريناه من الميت، ولم يكن لنا شهود على الشراء، فلم نذكره سابقًا، مخافة أن يكذبونا. فرفع ورثة الميت الأمر مرة أخرى إلى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وانعكس الأمر، فصار الأوصياء مدعين الشراء، والورثة منكرين له، ولم يكن لهما شهود، فاستحلف رجلان من ورثة الميت وهما أقرب الناس إليه على أن الجام كان للميت، وأن النصرانيين كاذبان في حلفهما. فأمرا بدفع ألف درهم باعا به الجام إلى الورثة.

ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

فائدة: أمر بالاستحلاف إذا شك الورثة، مخافة أن يكذبا في أول الأمر خوفًا من الاستحلاف، فلما تبين كذبهما استحلف الورثة، وذلك أيضًا كيلا يخدعا في الحلف، ويعلما أن حلفهما قد ينقلب عليهما. كذا في موضح القرآن.

فائدة: إن مصير العاصي لله تعالى هو الخزي والذل، ولايوفق للنجاح الحقيقي.

يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾

فائدة: يسأل الأنبياء في المحشر بين يدي الأمم عما أجابت حين بلغوهم رسالة الحق، وما مدى استجابتهم عن قبول الدعوة. وأفاد الركوع السابق أنه يجب إصلاح الوصية وغيرها من الأمور قبل المصير إلى الله تعالى، وهنا تنبيه على ضرورة التهيئ للمساءلة ثمة.

فائدة: يوم الحشر الذي يتجلى الله تعالى بجلاله، ويفقد العظماء عقولهم وقلوبهم، وعلى ألسنة أولي العزم من الرسل «نفسي، نفسي»، فلايسعهم أن يجيبوا عن سؤال الله تعالى في مثل هذا الوضع المخيف إلا بقولهم: لا علم لنا. ثم إن الله تعالى ينظر إلى الناس جميعًا نظر رحمة وكرم ببركة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فيقولون ما يقولون، كذا روي عن الحسن ومجاهد وغيرهما. وأما ابن عباس رضي الله عنه فقد حمل قوله (لا علم لنا) على أن المعنى: علمنا بجانب علمك الكامل المحيط كلا علمٍ.

فكأنهم قالوا ذلك تأدبًا مع الله تعالى. وقال ابن جريج: لاعلم لنا ما أحدثوا بعدنا. وإنما شهدنا من

الأعمال ما قاموا به بين أظهرنا، ولايعلم البواطن والسرائر إلا عالم الغيوب. وما جاء على لسان عيسى عليه السلام في الركوع التالي من قوله: (وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَـــــهِيدًا) يؤيد هذا المعنى الأخير. وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ يقول لبعض الناس: هؤلاء أصحابي، فيقال: لاتدري ما أحدثوا بعدك. الحديث.

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾

فائدة: لعل هذا الركوع كله تمهيد للركوع اللاحق، يذكرهم بالنعم ثم يسألهم عما يأتي.

فائدة: والنعمة على الأولاد نعمة على الأم من وجه. ثم إن الظالمين كانوا يتهمون مريم الصديقة، فجعل الله تعالى عيسى بن مريم برهانًا مبينًا لتنزيهها وتبرئتها منه، وأرى مريم عجائب الآيات قبل مولد المسيح وبعده، كان فيها عزاء وتسلية لها، فهذه النعم كانت عليه بواسطة.

فائدة: كلامه في المهد سيأتي ذكره في سورة مريم (إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ) [مريم:٣٠]. ويالعجب، لم يذكر النصارى كلام المسيح في المهد، إلا أنهم ذكروا أنه جاء بأدلة وبراهين حكيمة وهو ابن اثني عشر عامًا إلى اليهود، فبهت علماء اليهود، واستحسنها السامعون. والتأييد بروح القدس حاصل للأنبياء كلهم حسب درجاتهم؛ ولبعض المؤمنين أيضًا، ولكن عيسى عليه السلام - الذي كان وجوده بنفخ جبرئيل عليه السلام- على نوع خاص من المناسبة الطبيعية والتأييد، وقد ذكرناه في مبحث تفضيل الأنبياء: (تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ) [البقرة:٢٥٣]. مثل روح القدس في عالم الأرواح مثل خزانة القوة الكهربائية في عالم المادة، فإذا أرسل القائم على هذه الخزانة التيار حسب مبادئ محددة، وما يصل إليه تأثير الكهرباء، ويصلح علاقته به، فإن الآلات الساكنة الساكتة تدور بقوة رهيبة. ولو أن مريضًا من المرضى تم تعريضه لعمل الكهرباء، فإنه يحس ويتحرك بوصول الكهرباء إلى الأعضاء المشلولة والأعصاب غير الحاسة، وربما عادت قوة النطق إلى المصاب بالخرس إذا تم إيصال القوة الكهربائية إلى حلقومه؛ بل ادعى بعض الأطباء الغلاة أنه يمكن علاج جميع الأدواء بالقوة الكهربائية (دائرة المعارف لفريد وجدي). فإذا كان حال هذه المادة الكهربائية العادية هذا، فانظر في مدى قوة الكهرباء في عالم الأرواح، التي خزانتها روح القدس. و الحق أن الله تعالى جعل علاقة عيسى عليه السلام مع جبرئيل عليه السلام على نوع

خـاص، وخاضـعةً لمبـادئ تجلـت آثارهـا في الغلبـة الروحيـة الواضـحة، والتجـرد وآثـار الحيـاة الخاصـة. فتـسميته بـروح الله، وكلامـه في الـصبا والـشباب والكهولـة عـلى حـد سـواء، وخلـق الهيئـة مـن الطـين القابلـة للحيـاة بـأمر الله تعـالى، ونفخـه الـروح فيهـا بإذن الله تعالى، وإعادة النفع إلى المصابين بالأمراض المستعـصية وشـفاؤهم منهـا بـإذن الله تعـالى بـدون وسـاطة الأسـباب العاديـة، حتـى إعـادة الـروح مـرة أخـرى إلى الجثـة الميتـة بـإذن الله تعـالى، وتخييـب مخططـات بنـي إسرائيـل الخبيثـة، ورفعـه إلى الـسماء، وعـدم تـأثر حياتـه الطيبـة بهـذا العمـر الطويـل، ونحـو ذلك نشأ عن آثار هذه العلاقة الخاصة، التي وضعها الله تعـالى بينـه وبـين روح القـدس لطبيعـة ومبـادئ خاصة. ولله تعالى معاملات خاصة مع كل نبي من الأنبياء، لايحيط بعللها وأسرارها إلا علام الغيوب.

وهذه الخصائص والميزات يطلق عليها العلماء «الفضائل الجزئية»، وهـذا لايوجـب الفـضل الكـلي، فـضلا عـن أن يكـون دلـيلا عـلى الألوهيـة. وإطـلاق «الخلـق» في (وَإِذْ تَخْلُـقُ مِـنَ الطِّـيْنِ) عـلى الـصورة والحس الظاهر، وإلا فإن الخالق الحقيقي هو أحسن الخـالقين. ولـذا كـرر قولـه: (بـإذني)، وجـاء في آل عمـران تكـرار (بـإذن الله) عـلى لـسان المـسيح عليـه السلام. وعلى كل فالخوارق الواردة في هذه الآيات ومـا نـسب إلى المـسيح قبـل ذلـك في آل عمـران، لاينكرهـا ولايحرفهـا إلا الملحـد الـذي يُخـضع آيـات الله تعـالى لعقلـه الشخـصي. وأمـا الـذين ينكـرون المعجزات والخوارق من وراء ستار قانون القدرة، فقـد رددنـا عـليهم في مقـال مفـرد، يـزول بقراءتـه – بإذن الله تعالى – جميع الشكوك والشبهات.

فائدة: أطلقوا على المعجزات والتصرفات التي تفوق العادة «سحرا»، حتى تصدوا لقتل عيسى عليه السلام، فتكرم الله تعالى برفع عيسى عليه السلام إلى السماء، فحال دون تحقيق اليهود أهدافهم الخبيثة.

وَإِذْ أَوْحَيْـتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُـوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُـسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَـلْ يَـسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

فائـدة: وإنـما قـال: (هَـلْ يَـسْتَطِيعُ)، لأنهـم لم يوقنوا بأن الله تعالى يفعل ذلك رعاية لعيسى عليه السلام وبدعائهم خرقًا للعادة.

فائدة: أي يصلهم الرزق من غير كد اليمين وعرق الجبين من السماء، ولايستلزم أن يكون من الجنة.

فائـدة: أي لايليـق بالعبـد المـؤمن أن يطلـب أمثال هـذه الطلبـات غـير العاديـة مـن الله تعـالى مهـما كـان كريما عليـه، ويجـب أن يطلـب الـرزق بالأسـباب التي وضعها الله تعالى لطلبه. وإن العبد إذا اتقى الله تعالى، وخافه، وآمن به وتوكل عليه، فإن الله تعالى يرزقه من حيث لايحتسب.قال تعالى: (وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْـثُ لَا يَحْتَـسِبُ) [الطلاق:٢-٣].

الخليفة هارون الرشيد[1] والإمام سفيان الثوري

بقلم: الدكتور/ عبد الرحمن عميرة

ذكر الإمام أبو حامد[2] الغزالي قال:

إن الرشيد لما ولي الخلافة زاره العلماء بأسرهم إلا سفيان الثوري، فإنه لم يأت وكان بينهما صحبة، فشق ذلك عليه فكتب الرشيد إليه كتابًا قال فيه.

بسم الله الرحمن الرحيم.. من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى أخيه في الله سفيان بن سعيد الثوري. أما بعد:

يا أخي فقد علمت أن الله آخى بين المؤمنين، وقد آخيتك في الله مؤاخاة لم أحرم فيها حبك ولم أقطع منها ودك.

وإني منطوٍ لك على أفضل المحبة، وأتم الإرادة.

ولولا هذه القلادة التي قلدنيها الله تعالى لأتيتك ولو حبوًا لما أجد لك في قلبي من المحبة..

وإنه لم يبق أحد من إخواني وإخوانك إلا زارني، وهنأني بما صرت إليه.

وقد فتحت بيوت المال، وأعطيتهم من المواهب السنية ما فرحت به نفسي، وقرت به عيني.

وقد استبطأتك..؟؟

وقد كتبت كتابًا مني إليك أعلمك بالشوق الشديد إليك.

وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل زيارة المؤمن، ومواصلته.

فإذا ورد عليك كتابي هذا فالعجل العجل.

ثم أعطى الكتاب لعباد الطالقاني، وأمره بإيصاله إليه، وأن يحصي عليه بسمعه وقلبه دقيق أمره وجليله ليخبره به.

قال عباد: فانطلقت إلى الكوفة.

فوجدت سفيان في مسجده، فلما رآني على بعد قام وقال:

«أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وأعوذ بك اللّهم من طارق يطرق إلا بخير».

قال: فنزلت من فرسي بباب المسجد فقام سفيان[3] يصلي ولم يكن وقت صلاة..؟؟

فدخلت وسلمت فما رفع أحد من جلسائه رأسه إليَّ.

قال: فبقيت واقفًا، وما منهم أحد يعرض عليَّ الجلوس..؟؟

وقد علتني من هيبتهم الرعدة، فرميت الكتاب

إليهم.

فلما رأى الكتاب سفيان ارتعد وتباعد منه كأنه حية عرضت له في محرابه فركع وسجد وسلم.

ثم أدخل يده في كمه وأخذه بها وقلبه ورماه إلى من كان خلفه وقال:

ليقرأه بعضكم؛ فإني أستغفر الله أن أمسّ شيئًا مسّه ظالم بيده..؟؟

قال عباد: فمد بعضهم يده إليه وهو يرتعد كأنه حية تنهشه ثم قرأه..؟؟

فجعل سفيان يبتسم تبسم المعجب.

فلما فرغ من قراءته قال سفيان:

اقلبوه، واكتبوا للظالم على ظهره.

فقيل له: يا أبا عبد الله: إنه خليفة.. فلو كتبت إليه في بياض نقي لكان أحسن.

فقال: اكتبوا للظالم في ظهر كتابه. فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به، وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به.

ولا يبقى شيء مسه ظالم بيده عندنا فيفسد علينا ديننا.

فقيل له ما نكتب إليه..؟

قال اكتبوا له: بسم الله الرحمن الرحيم.

من العبد الميت سفيان إلى العبد المغرور بالآمال هارون الذي سُلِبَ حلاوة الإيمان ولذة قراءة القرآن.

أما بعد:

فإني كتبت إليك أعلمك أني قد حرَّمت حبك، وقطعت ودك.

وإنك قد جعلتني شاهدًا عليك بإقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت على بيت مال المسلمين فأنفقته في غير حقه.

وأنفذته بغير حكمه.

ولم ترض بما فعلته وأنت ناءٍ عني، حتى كتبت إليَّ تشهدني على نفسك..؟؟

فأما أنا فإني قد شهدت عليك أنا وإخواني الذين حضروا قراءة كتابك، وسنؤدي الشهادة غدًا بين يدي الله الحكم العدل..؟؟

يا هارون، هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم..؟؟

هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم، والعاملون عليها في أرض الله والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل..؟

أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم..؟

أم رضي بفعلك الأيتام والأرامل..؟

أم رضي بذلك خلق من رعيتك..؟

فشد يا هارون مئزرك، وأعد للمسألة جوابًا، وللبلاء جلبابًا.

واعلم أنك ستقف بين يدي الحكم العدل.

فاتق الله في نفسك إذ سُلبت حلاوة العلم والزهد، ولذة قراءة القرآن، ومجالسة الأخيار، ورضيت لنفسك أن تكون ظالمًا وللظالمين إمامًا..؟؟

يا هارون قعدت على السرير ولبست الحرير..؟؟

يا هارون أسبلت ستورًا دون بابك وتشبهت بالحجة برب العالمين..

ثم أقعدت أجنادك الظلمة دون بابك وسترك.

يظلمون الناس ولا ينصفون.

ويشربون الخمر ويحدون الشارب.

يزنون ويحدون الزاني.

ويسرقون ويقطعون يد السارق.

ويقتلون ويقتلون القاتل.

أفلا كانت الأحكام هذه عليك وعليهم قبل أن يحكموا بها على الناس..؟

فكيف بك يا هارون غدًا إذا نادى المنادي من قبل الله تعالى:

«احشروا الظلمة وأعوانهم».

فتقدمت بين يدي الله ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك.

والظلمون حولك وأنت لهم إمام أو سائق إلى النار.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾[٤] وكأني بك يا هارون، وقد أخذت بضيق الخناق، ووردت المساق، وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك..؟؟

وسيئات غيرك في ميزانك..؟؟

بلاء على بلاء وظلمة فوق ظلمة.

فاتق الله يا هارون في رعيتك، واحفظ محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في أمته.

واعلم أن هذا الأمر لم يصر إليك إلا وهو صائر إلى غيرك.

وكذلك الدنيا تفعل بأهلها واحدًا بعد واحد، فمنهم من تزوده زادًا نفعه.

ومنهم من خسر دنياه وآخرته.

وإياك ثم إياك أن تكتب إليَّ بعد هذا فإني لا أجيبك والسلام.

وألقى الكتاب منشورًا من غير طي ولا ختم.

فأخذه عباد. ثم أوصله إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد. فأقبل يقرؤه، ودموعه تنحدر على وجهه وهو يشهق.؟؟

فقال بعض جلسائه:

يا أمير المؤمنين قد اجترأ عليك سفيان، فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد وضيقت عليه بالسجن فجعلته عبرة لغيره.

فقال هارون: اتركوا سفيان وشأنه.

يا عبيد الدنيا المغرور من غررتموه.

والشقي والله حقًا من جالستموه.

إن سفيان أمة وحده.

يقول راوي الخبر: ولم يزل كتاب سفيان عند الرشيد يقرؤه دبر كل صلاة ويبكي حتى توفي رحمه الله.

ونقول: العلماء ورثة الأنبياء وعليهم أن يبينوا للناس أمور دينهم، وصلاح دنياهم وأخراهم حتى يكونوا ممن عناهم الله بقوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾[٥].

فإن لم يفعلوا ذلك تلاشت عنهم الخيرية التي امتن الله بها على أمة محمد -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾[٦].

وقوله تعالى أيضًا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾[٧].

ولا شك أن العالم الجليل سفيان الثوري قد أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وبين ووضح شرع الله. فجزاه الله خير الجزاء وأسكنه فسيح جناته.

* * *

الهوامش:

(١) هارون الرشد بن محمد المهدي بن المنصور العباسي خامس خلفاء الدولة العباسية وأشهرهم ولد بالري عام ١٤٩هـ ونشأ في دار الخلافة في بغداد وولاه أبوه غزو الروم. فصالحته الملكة وافتدت مملكتها بسبعين ألف دينار وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادي سنة ١٧٠هـ كان يحج سنة ويغزو الأعداء سنة استمر في الخلافة ٢٣ سنة توفى عام ١٩٣هـ.

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، حجة الإسلام له نحو مئتي مصنف مولده عام ٤٥٠هـ بخراسان رحل إلى الحجاز والشام ومصر ثم عاد إلى بلده، من كتبه: إحياء علوم الدين وتهافت الفلاسفة. والمنقذ من الضلال وغير ذلك كثير، توفي عام ٥٠٥هـ [راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٦٣ وشذرات الذهب ٤ : ١٠].

(٣) سفيان الثوري: من قبيلة مضر أبو عبد الله، أمير المؤمنين في الحديث، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى ولد بالكوفة عام ٩٧هـ طلب منه المنصور العباسي تولى الحكم فأبى وخرج من الكوفة عام ١٤٤هـ فسكن مكة والمدينة ثم طلبه المهدي فتوارى، وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفيًا. له من الكتب الجامع الكبير والجامع الصغير في الحديث. [راجع ابن النديم: ١ : ٢٢٥ وابن خلكان ١ : ٢١٠].

(٤) سورة طه الآيات رقم: ١٢٤-١٢٦.

(٥) سورة آل عمران الآية رقم: ١٠٠.

(٦) سورة البقرة آية رقم: ١٥٩.

(٧) سورة البقرة آية رقم: ١٧٤.

من تـاريخ الجـامعة الإسلامية : دارالعلوم/ ديوبـند

(الحلقة ١١٣)

بقلم: **الأستاذ/ سيد محبوب الرضوي الديوبندي -رحمه اللّه-**
(المتوفى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)
ترجمة وتعليق: **محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**(*)

تراجم خريجي دارالعلوم/ديوبند:

١١٦- الشيخ حفظ الرحمن السيوهاروي رحمه الله:

ولد الشيخ السيوهاروي في عائلة إقطاعية في «سيوهاره» من أعمال «بجنور» عام ١٣١٨هـ، وأرخوا لاسمه بـ«حفظ الرحمان» - بالألف بعد الميم-، وكان والده شمس الدين مهندسًا مساعدًا في «بوبال»، ثم في «بيكانير»، وله أخوان آخران، فزودهما والده بالدراسة الإنجليزية، ولم يحظ بالدراسة الدينية في عائلته غيرُه، فتلقى معظم العلم في مدرسة فيض عام في «سيوهاره» ومدرسة شاهي/مراد آباد، والتحق بدار العلوم/ديوبند عام ١٣٤١هـ، وقرأ كتب المرحلة النهائية من «صدرا»، و «شمس بازغة»، وغيرهما من الكتب الفلسفية. وتخرج من دورة الحديث الشريف عام ١٣٤٢هـ.

وطلب أهل «مدراس» من دارالعلوم/ديوبند مدرسًا فأرسلته دارالعلوم/ديوبند إليها، فقام بالتدريس في «بريامبت» سنة واحدة، واشتغل في الدعوة والتبليغ. وبها بدأ أعماله التأليفية، وصنف كتيبين صغيرين، هما: «حفظ الرحمن لمذهب النعمان» و«مالابار مين إسلام». وسعد بالحج في تلك الأيام، ولما عاد من الحج رجع إلى دارالعلوم/ديوبند، وقام بالتدريس فيها عام ١٣٤٤هـ، ثم تحول مع العلامة أنور الشاه الكشميري إلى الجامعة الإسلامية/دابيل، وقام بالتدريس بها خمس إلى عشر سنوات.

وتحول عام ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م بدعوة من لجنة تبليغ الإسلام/كالكوته – التي كان يرأسها مولانا أبو الكلام آزاد إلى كالكوته، وقام بتدريس القرآن الكريم خمس سنوات بها، وكان يشرح مطالب القرآن الكريم ومعارفه بأسلوب خلاب للناس فسرعان ما عظم في عيون الناس وتمكنت مكانته من قلوبهم، واستمرت شعبيته حتى آخر عمره.

وفي عام ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م أنشئت ندوة

(*) أستاذ الحديث واللغة العربية وآدابها بالجامعة.

المـصنفين في دهـلي، فقـدم مـع زميلـه القـديم المفتـي عتيق الرحمن العثماني دهلي.

فقـام بخـدمات جليلـة في نـدوة المـصنفين، فصنف كتبا علمية قيمة أمثال «اسلام كا اقتصادي نظـام»، و«أخـلاق وفلـسفه أخـلاق»، و«قـصص القرآن». وسبق أن ألف «رسول كريم» - في السيرة النبوية-، و «بلاغ مبين»، وهـو في السجن المركزي في دهلي عام ١٣٥١هـ/١٩٣٣م.

واختيرعـام ١٩٤٢م/١٣٦١هـ أمينًـا عامًّـا لجمعيـة علـماء الهنـد، وكـان يجمـع بـين الـشغف بالتدريس والإفادة والتصنيف والتأليف إلى جانب العلاقـة الوطيـدة مـع عقبـات الـسياسة. فانقـضى الـشطر الأكـبر مـن عمـره في خدمـة الـدين والدولـة، والمساعي الرامية إلى تحرير البلاد، وتعرض من أجل ذلك للسجن والحبس مرات في مختلف المراحل.

واندلعت الاضطرابات الطائفية في شتى أنحاء الـبلاد بعـد اسـتقلال الهنـد عـام ١٩٤٧م، ونفقـت سوق القتل والدمار، واشتعلت نيرانها في دهلي بقوة فتزعـزت أقـدام المـسلمين، وفي مثـل هـذا الوقـت الحرج أبلى الشيخ بلاءً حسنًا في مواجهة الأوضاع العنيفة، وهـز القيـادات الـسياسية وحـث الـسلطات ولعـب دورًا بـارزًا في بـسط الأمـن والـسلم. و أزال الخـوف مـن قلـوب المـسلمين الخـائفين المـذعورين، وبمساعٍ مضنية منه ثبتت أقدامهم من جديد، وهـو عمـل عبقـري بـارز لـه يـستحق أن يكتـب بـماء مـن ذهب، ولـن ينسى التاريخ ما قام به من خدمة جليلة للمسلمين بعد عام ١٩٤٧م في الهند.

وفي الوقت الذي كانت تشهد فيه دهلي سفك الدماء ونهب الأموال في كل جانب، قال له بعض أصـدقائه الهنـدوس بـإصرار: أصـبح مـن الـصعوبة بمكـان الحفـاظ عـلى نفسك، فهـلا تنتقـل إلى بعـض مخيمات اللاجئين، ولكنه رفض بكل شجاعة وبكل قوة إشارتهم بالتوجه إلى مخيمات اللاجئين، وقال: لا أفضحَ ولا أشد جبنًا من أن نعيش لاجئين في بلادنا نحن، ولاشك أنه بلاء عظيم، ولكن يجب أن نقاومه بكل قوة وجرأة.

ونظـرًا إلى خـدمات الـشيخ حفـظ الـرحمن الـسيوهاروي هـذه سمّته الأمـة الإسـلامية بـ«مجاهـد الملـة». وقـام بـالتجول في طـول الـبلاد وعرضـها، وأيقـظ الـوعي في الأمـة الإسـلامية، وعرفهـا بمتطلبـات الـزمن. ولم يـدخر جهـدًا في الحفـاظ عـلى جامعة المسلمين /علي كره. ومن خصائصه وميزاته أنـه كـان يحظى بثقـة الأمـة الإسـلامية بهـا في جانـب، وفي جانب آخر كانت الحكومة تنظر إليه نظرة ملؤها التقدير والإجلال.

وما تحمّله الشيخ من الأعباء الجسام بعد عام ١٩٤٧م أنهـك قـواه وأفسد عليـه صـحته، وفـتَّ في عضده، واشتد مرضه مع الأعمال غير العادية، وقام الأطبـاء بـالفحص فتوصـلوا إلى أنـه مـصاب بالسرطان، فنقل إلى مومبائ لتلقي العلاج، واستمر

العـلاج شـهرين ونـصفًا وشـعر بـبعض التحـسن والخفـة، ولكـن أجلـه كـان قـد جـاءه، فلبـى هـذا المجاهـد الـديني نـداء ربـه غـرة ربيـع الأول عـام ١٣٨٤هـ (٢/أغـسطس عـام ١٩٦٢م). ودفـن في مقبرة الشاه ولي الله الدهلوي المعروفة بـمهديان في دهلي الجديدة.

وكـان الشيخ حفظ الرحمن عضوًا في كثير من المـدارس الدينيـة والمـدارس العـصرية والكليـات. وكـان عـضوًا في المجلس الإداري لجامعة علي كـره مـدة مـن الزمـان. وظـل عـضوًا في المجلـس الاستشاري في دارالعلوم/ديوبند إلى أن وافاه الأجل عام ١٣٨٣هـ.

١١٧- الشيخ السيد محمد ميان الديوبندي رحمه الله:

أرخـوا لاسـمه بـ«مظفـر ميـان»، مـن عائلـة السادات الرضـوية في ديوبنـد، ولـد عـام ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م في مدينـة «بلنـد شـهر»، حيـث كـان والـده موظفًا في مصلحة الأنهار. وبدأ دراسته في بيته، وقرأ القـرآن الكـريم عـلى فقيـه في «مظفرنغـر»، والتحـق بقـسم اللغـة الفارسـية بـدارالعلوم/ديوبنـد عـام ١٣٣١هـ، وتخـرج مـن دارالعلـوم/ديوبنـد عـام ١٣٤٣هـ، ثـم ولي التـدريس أولا في قريـة «آره» في «شـاه آبـاد»، ثـم اشـتغل مدرسًـا ومفتيًـا في مدرسـة شاهي/مراد آباد، ثم نُصِبَ أمينًا عامًّا لجمعية علماء الهند، واستمر على منصب الأمين العام سنة واحدة، وكـان مـن قيـادات الجمعيـة المخلـصين الناشـطين، وتعرض مرات للسجن في العهد البريطاني.

وألـف الـسيد محمـد ميـان عـددًا مـن الكتـب، وكـان ذا نظـرة عميقـة في الفقـه والتـاريخ، ومؤلفًـا ومؤرخًـا شـهيرًا. وسـتظل خدماتـه الـسياسية والتصنيفية ماثلة للعيون في تاريخ جمعية علماء الهند. ومن أبرز أعماله: «علماء هند كا شاندار ماضي»، و «علماء حق كے مجاهدانه كارنامے»، و «تحريك شيخ الهند»، و«تاريخ الإسلام»، و«عهد زرين»، و«پاني پـت وبزرگـان پـاني پـت ''، وفي الحـديث «مـشكاة الآثـار»، وهـو مـن المقـررات الدراسـية في دارالعلـوم/ديوبنـد. والمنهج التعليمي الـديني الـذي أعدتـه جمعيـة علـماء الهنـد دبجـه يـراع الـشيخ الـسيد محمـد ميـان. وهـذه الرسـالة مدرجـة في المقـررات الدراسية في المـدارس والكتاتيب الإسلامية. وكـان له نظرة واسعة في تاريخ جمعية علماء الهند السياسي وسـجلاته، وقـام بخدمـة تأليفيـة جليلـة في تعريـف العامة بمآثر جمعية علماء الهند.

وكان له نظرة غائرة في تاريخ العهد الإسلامي الأخير في الهند، وتعتبر كتاباته في خدمات عائلة ولي الله الـدهلوي، وأكـابر علـماء ديوبنـد العلميـة والـسياسية والدينيـة والدعويـة عـلى قمـة الثقـة والاعتبار. ويشير إليها المؤلفون في أوربا وأمريكا، ولقيت مؤلفاته القبول والشعبية.

رغـم مـشاركته في الـضجات الـسياسية كـان يـشكل نموذجًـا للـسلف الـصالح في الاخـتلاء عـن

النـاس، والتقيـد بـالأوراد والأعـمال عـلاوة عـلى التـضلع مـن العلـم والفـضل والتواضـع وهـضم الـذات، والزهـد والقناعـة والاجتهـاد والعبـادة والصلاح والتقوى.

وشغل في آخر أيام حياته مشيخة الحديث في المدرسة الأمينية/دهلي، ومنصب المعتمد في إدارة المباحـث الفقهيـة، وظـل عـضوًا للمجلـس الاستشاري لدارالعلوم/ ديوبند منذ عام ١٣٧٠هـ.

تـوفي في ١٦/شـوال المكـرم عـام ١٣٩٥هـ (٢٢/أكتـوبر عـام ١٩٧٥م) عـن عمـر بلـغ (٧٤) عامًا، ودفن في دهلي.

١١٨- الشيخ محمد بن موسى الإفريقي رحمه الله:

أصـله مـن قـصبة «سـملك» مـن أعـمال «سـورت»، وانتقلـت عائلتـه قبـل أجيـال إلى مدينـة «جوهانـسبرغ» مـن جنـوب إفريقيـة، واسـتوطنتها، وبها ولد عام ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م، وأرسله والده إلى الهند لتلقي مبادئ الدراسة. فقرأ على الشيخ نذير أحمد البالنفوري، ثم التحق بدارالعلوم/ديوبند عام ١٣٤٢هـ، وتخرج منها عام ١٣٤٤هـ، وبايع الشاه الكشميري إثر مقدمه إلى دارالعلوم/ديوبند، وغلب عليه لـون حيـاة الـشاه الكـشميري، فكـان أقـرب نموذج لشيخه في قعوده وقيامه ودله وسمته وكلامه وأسـلوبه. ورغـم ثرائـه كـان عـلى منتهـى البـساطة والتواضع في الطبيعة والعيش. وكـان يعيش حياته بكـل بـساطة مثـل عامـة الطلبـة، ويـسابق إلى أعـمال الخير والبر، وينفق بكل سخاء. وكان يتقن بجانب العربية والفارسية- الإنجليزية والفرنسية.

وبعـد أن تخـرج في العلـوم رحـل إلى «جوهانـسبرغ» فـشارك في أعـمال والـده التجاريـة الواسعة بجانب المساهمة في الخدمات الدينية، وأنشأ مؤسسة واترفال الإسلامية للدراسات الإسلامية والعـصرية، وأقـام لهـا مبنـى شـامخا، وكـان يتحمـل نفقات المؤسسة وحده. وكان يوفر – على شاكلة دارالعلوم/ديوبند- الدراسة مجانًا بجانب الوجبات الغذائيـة للطـلاب، وظـل رئيـسًا لجمعيـة ترانـسوال دائمًا. وقـدم مـساعداتٍ ماليـةً كبـيرةً في بنـاء الجامعـة الإسـلامية/دابيـل وتطويرهـا، وكـان لـه ولـع شـديد بـالأعمال العلميـة، وأنـشأ في دابيـل مجلـسا علميـا[1] للتـأليف والتـصنيف. وعنـي بنـشر الكتـب العلميـة الهامة، وكفل جميع نفقاته. وحصل على مائيكروفيلم للحـواشي بخـط يـد العلامـة محمـد أنـور الـشاه الكشميري على كتاب «آثار السنن» للعلامة ظهير أحسن شـوق النيمـوي - المتـوفى ١٣٢٢هـ-، ونـشر نسخه لأهل العلم.

وقام الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي بتحقيق

---

[1] قام المجلس العلمي بأعمال مشكورة متمثلة في نشر أهم كتب الشاه الكشميري وغيره من أهل العلم. ومن أهمها «نصب الراية على تخريج أحاديث الهداية»، و «فيض الباري على صحيح البخاري». وطبع الكتابان على الطباعة المصرية في القاهرة.

كتاب «المصنف لعبد الرزاق» ونشره بمساعدة مالية من قبل أبنائه.

تــوفي في جوهانــسبرغ في ١٦/أبريــل عــام ١٩٦٣م (٢١/ذي القعدة عام ١٣٨٢هـ).

١١٩- الشيخ سعيد أحمد الأكبرآبادي رحمه الله:

ولــد في نحــو عــام ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م في «آغره»، وأصله من «بجهرايون» من أعمال «مراد آباد»، وتلقى مبادئ العلم في بيته، ثم قرأ في مدرسة شاهي/مراد آباد، وأكمل دراسته في النهاية في دارالعلوم/ديوبند عام ١٣٤٤هـ، ثم اجتاز اختبار «المولوي الفاضل» من الكلية الشرقية/لاهور، ثم ولي التدريس في الجامعة الإسلامية/دابيل عامين، ثم تحول منها إلى دهلي وعين أستاذًا للألسنة الشرقية في المدرسة العالية/ فتحفوري. وحضر الماجستير خلال ذلك من كلية «إستيفن»، وخلف شمسَ العلماء الشيخ عبد الرحمن محاضرًا في كلية «إستيفن»، ثم ولي نظارة المدرسة العالية /كالكوته عام ١٩٤٩م/١٣٦٨هـ.

واختير رئيسًا لقسم العلوم الدينية في جامعة المسلمين/ علي كره عام ١٩٥٨م، وكان قسم العلوم الدينية في الجامعة قبله في وضع عادي جدًّا، فقام الشيخ الأكبر آبادي بتطوير هذا القسم على المستوى العلمي والإداري بمساعيه البالغة ولعب دورًا كبيرًا في الرفع بها إلى مصاف الأقسام الجامعية الراقية الأخرى. وأصبح هذا القسم من الجامعة ذا مستوى راقٍ على مثل الأقسام الأخرى. وتدشين مرحلة الدكتوراة في العلوم الدينية (facility of thiyalogy) من نتائج جهود الشيخ الأكبر آبادي. وبعد أن أكمل مدته في علي كره انصرف الشيخ الأكبر آبادي في الأعمال العلمية في مركز «التحقيقات العلمية» (Research istitute) في تغلق آباد.

ويرأس الشيخ تحرير مجلة «البرهان» العلمية الراقية الصادرة عن ندوة المصنفين منذ عام ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م. ويدبج يراعه مقالات ذات مغزى وفكر، تقرأها الأوساط الجديدة والقديمة بشوق ونهم، وله عدد من الكتب المحققة العلمية الراقية القيمة، منها: «إسلام مين غلامي كي حقيقت»، و «غلامان إسلام»، و«وحي إلهي»، و«فهم قرآن»، و«مسلمانون كا عروج وزوال» و«صديق أكبر». وكان يجمع بين القلم الرشيق والخطابة الموفقة.

زار جامعة «ميك كل» في«كندا» الشهيرة في الآفاق أستاذًا زائرًا إبان نزوله في جامعة عليكره، وقام بجولة في آسيا وروسيا وإفريقية ومختلف الدول الأوربية. كما شهد عددًا من المؤتمرات العالمية، و شارك في مؤتمر العالم الإسلامي أيضًا، وهي شخصية عالمية، وعضو للمجلس الاستشاري في دار العلوم/ديوبند منذ عام ١٣٨٢هـ.

* * *

* *

شبهات حول التقليد

بقلم: **الشيخ الكبير المربي الجليل العلامة أشرف علي التهانوي**
المعروف بـ«حكيم الأمة» (١٣٦٢هـ/١٩٤٣م)
تعريب: **الأستاذ أبو عبد الله أشرف عباس القاسمي**(*)

الشبهة التاسعة عشرة:

ولـو سـلمنا أن التقليـد واجـبٌ فيجـب أن لا يكون التقليد إلا للمجتهد وأما الإمام أبو حنيفة فلم يكن مجتهدا؛ لأن من شروط المجتهد أن يكون عارفًا بالأحاديـث الكثـيرة، ولم يبلغـه مـن الأحاديـث إلا سبعة عشر حديثا، كما قال بعض المؤرخين، وكذلك ضعّفه البعض في رواية الحديث، فإذن لاثقة بمسائله ولا بروايته؟

الجواب:

قـال المـؤرخ ابـن خلـدون - الـذي حكـى عـن الإمام أبي حنيفة أنه لم يبلغه من الأحاديث إلا سبعة عشر حديثا - عن الإمام قائلا: «ويدل على أنه كان مـن كبـار المجتهـدين في علـم الحـديث اعتمادُ مذهبـه بينهم، والتعويل عليه، واعتماده ردًّا وقبولا»(١).

فلـما وجـب كـون المجتهـد محـدثًا - كـما قـال المعـترض، والواقـع أيضا يؤيـد قولـه - وثبـت كـون الإمام مجتهدا بقول المؤرخ، فلاجرم أن يثبت كونه محـدثًا كـما هـو الظـاهر؛ لأن وجـود الملـزوم يـستلزم وجـود اللازم. أما ما كتبه المؤرخ من القول الذي يخالف تحقيقه المذكور، فإما أنه أخطأ هو بنفسه أو الناسـخ أو حكـى عـن قـول غـيره، ثـم بـين ضـعفه بـصيغة «يقـال» عنـه، (أو لم يثبـت عنـد ابـن خلـدون ذلك الرأي الذي يقضي بأن الإمام أبي حنيفة بلغت مروياته سبعة عشر حديثا فقط؛ لذلك بدأه بكلمة «يقـال» وهـي صـيغة مـن صـيغ التمـريض تفيـد الشك). هذا إلى أن هذا القول يأباه العقل والنقل، فيكـون باطلا أصلاً إن لم يؤوّل. ولما لم يكن المؤرخ في عِداد رجال العلوم الشرعية والماهرين فيها - كما صرح به الحافظ شمس الدين السخاوي في ترجمته في الضوء اللامع(٢)، فلاعجب إذا صدر عنه مثل هذا القول الباطل فيما يخص العلوم الشرعية.

أما كون هذا القول مخالفا للنقل فإنه إذا ذهب أحـد ليقـرأ الموطـأ وكتـاب الحجـج وكتـاب الآثـار والـسير الكبـير للإمـام محمـد بـن الحـسن الـشيباني وكتاب الخراج للإمام أبي يوسف ومصنف ابن أبي

(*) أستاذ بالجامعة.

شـيبة ومـصنف عبـد الـرزاق وكتـب الـدار قطنـي والبيهقي والطحاوي، واستخرج منها جميع المرويات من طرق مرضية لأبي حنيفة، وأحصاها، اتضح له كذب هذا القول وضوحَ الشمس في رائعة النهار.

وأما كونه مخالفا للعقل فإن الإمام أبا حنيفة من أتباع التابعين فيما ذهب إليه بعض المحدثين كالحافظ ابن حجر العسقلاني في قول منه، أو من التابعين فيما ذهب إليه الخطيب البغدادي والدار قطني وابن الجوزي والنووي والذهبي وولي الدين العراقي وابن حجر المكي والسيوطي والعسقلاني في قول منه وغيرهم من المحدثين، فالذي يقرب عهده من عهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا القربَ، وعاش عصرًا كان العلم فيه شائعا، والدين منتشرا، كيف يجوّز العقل أنه لم يبلغه إلا سبعة عشر حديثا؟ وقد صرح المؤرخ بنفسه في مفتح تاريخه أن الأمور التاريخية لابد أن تُوزن بميزان العقول، فإذا لم تستسغه البراهين العقلية، رُفِضَتْ عند أرباب العقول. فاندفعت الشبهة في كون الإمام غير مجتهد بحذافيرها.

وأمّا ما ورد عن ضعفه في روايات الحديث؛ فذكر الذهبيُّ في «تذكرة الحفاظ»: أنّ يحيى بن معين قال فيه: «لا بأس به لم يكن متّهمًا». انتهى. ومثل هذا الكلام إذا جاء من مثل ابن معين رئيس النقّاد، يقوم مقامَ كلمة التوثيق، كما صرّح به الحافظ ابن حجر وغيره.

وذكر ابنُ عبد البر عن عليٍّ بن المَديني: أبوحنيفة روى عنه الثوريّ وابن المبارك، وحماد بن زيد، وهشام، ووكيع، وعباد بن العوام، وجعفر بن عون، وهو ثقة لا بأس به، وكان شعبة حسن الرأي فيه، وقال يحيى بن معين: أصحابنا يفرطون في أبي حنيفةِ وأصحابهِ، فقيل له: أكان يكذب؟ قال: لا.

فتصريح هؤلاء الكبار من المحدثين النقاد، لايترك سبيلا حتى للشك في ضعفه. - وهذا كله ملتقط من مقدمة عمدة الرعاية للشيخ مولانا عبد الحي اللكنوي رحمه الله تعالى-.

الشبهة العشرون:

عُد أصحاب الإمام أبي حنيفة في كتاب «الغنية» للشيخ عبد القادر الجيلاني من المرجئة، فثبت أن فرقة الأحناف من الفرق الضالة الباطلة؟

الجواب:

«غنية الطالبين» غير متوفر عندي، فما تمكنت من مراجعته والرد عليه. ولكن أسوق فيما يلي ما حكاه الإيجي في شرح المواقف في بيان عدد الفرق الضالة، وسيكفي هذا ردًّا على السؤال. يقول الإمام الإيجي في المواقف بعد ما عدّ الغسانية - أصحاب غسان الكوفي - من فرق المرجئة: «وغسان كان يحكيه أي القول بما ذهب إليه عن أبي حنيفة ويعده من المرجئة، وهو افتراء عليه، قصد به غسان ترويجَ

مذهبه بموافقة رجل كبير مشهور». قال الآمدي: «ومع هذا فأصحاب المقالات قد عدوا أبا حنيفة وأصحابه من مرجئة أهل السنة ولعل ذلك لأن المعتزلة في الصدر الأول كانوا يلقبون من يخالفهم في القدر مرجئا» أو لأنه لما قال «الإيمان هو التصديق ولا يزيد ولا ينقص» ظن به الإرجاء بتأخير العمل عن الإيمان، وليس هذا من الواقع في شيء؛ لأنه عُرف منه مبالغته في الأعمال الصالحة والاجتهاد فيها».

عُلم من هذا أجوبة عدة:

الأول: هذا افتراء من غسان على أبي حنيفة لما رمى به إلى الغرض الفاسد.

الثاني: أن المعتزلة لقبوا من خالفهم من أهل السنة مرجئا، فأطلقوا على أبي حنيفة كذلك.

الثالث: نشأت هذه الشبهة الخاطئة بما قاله الإمام أبو حنيفة في تفسير الإيمان بـ«إنه هو التصديق». فما في الغنية إما مؤول أو زلة في النقل؛ فإن عقائد المرجئة معروفة باطلة، وكذلك كتب الحنفية تشهد ببطلان مذهب المرجئة، وأما الحنفية وإمامهم فهم ليسوا منهم.

الشبهة الحادية والعشرون:

من الإثم أو الشرك أن ينسب الحنفي نفسه إلى الإمام أبي حنيفة ويسمى حنفيًّا، بدل أن ينسب الحنفي نفسَه إلى رسول الله ﷺ ويُسمى محمديًّا؟

الجواب:

أولاً يجب الاطلاع على معنى هذه النسبة، ليظهر حكمه، فاعلم أن «الحنفي» يُراد به من يسلك ويتبع مذهب الإمام أبي حنيفة، ولما كان هذا الانتماء إلى غير النبي، فيجب أن ننظر: هل هذا يجوز بوجه من الوجوه الشرعية أم لا؟ ففي حديث عرباض بن سارية عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: عليكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ»[٣].

نسب النبي ﷺ الطريقةَ المسلوكة في الدين إلى الخلفاء الراشدين، فدل ذلك على أن إضافة طريقة الدين إلى غير النبي لملابسةٍ ما جائزة، فلو نسب أحدٌ مذهبه - الذي هو طريق من طرق الدين- إلى الإمام أبي حنيفة بمعنى أنه عالم وشارح له، فأنى يلزم منه الإثم أو الشرك؟ نعم لو اعتقد بالانتماء إليه أنه هو الحاكم والآمر- العياذبالله - فلا شك أنه شرك، بل لايجوز كذلك إذا نسب أحد مذهبه إلى النبي ﷺ بهذ المعنى. قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾[٤] ولما كان الأمر كذلك فهيهات أن ينسب مسلم من المسلمين مذهبه إلى غير النبي أو إلى غيره تعالى.

أما قول القائل: بأنه كان أحرى أن ينسب إلى الرسول ﷺ مكان نسبته إلى أبي حنيفة «فهو خطأ محض؛ فإن المسلم لايحتاج لمثل هذه النسبة المحمدية

إلا إذا أراد تمييـز نفـسه مـن المـسيحي أو اليهـودي، وسمى نفسه محمديًّا، وأما إذا أراد طريقا من طرق المحمـديين، فيـسمى نفـسه حَنَفيًّـا أو شـافعيًّا؛ فـإذا أطلق هنالك أيضا كلمة «المحمدي»، كان من قبيل تحصيل الحاصل، فثبت أن لكل مقالٍ مقاما. وليس هناك أحد يفضل الحنفي دون المحمدي.

الشبهة الثانية والعشرون:

إنكـم تأخـذون في بعـض المـسائل بـأقوال الـصاحبين – أبي يوسـف ومحمـد بـن الحسن – وفي بعـض الأحيـان تُفتـون بـأقوال الأئمـة الآخـرين، فكيف يبقى التقليد الشخصي؟

الجواب:

صاحبا الإمام أبي حنيفة لايقلدان في الأصول إلا إيـاه، وإنـما الاخـتلاف في اسـتنباط بعـض الجزئيات، وهذه الجزئيات أيضا مستخرَجة من تلك الأصول نفسها. فالأخذ بأقوال الصاحبين في بعض المسائل لايلزم منه ترك التقليد كما تقرر في قواعد رسم المفتي؛ فإن المقصود بالنظر في الشخصيات هـي الأصـول، وأمـا الأخـذ بـبعض أقـوال الأئمـة الآخرين فهذا لايتحقق إلا إذا كانت هناك ضرورة شديدة تدعو ذلك، وقد تقرر في الشرع أن الضرورة توجب التخفيف. وأما المفاسد المذكورة التي يجرّها ترك التقليد الشخصي، فهي أيضا لاتوجد في ذلك. وليس المقصود من التقليد إلا سدّ هذه المفاسد، وهو موجود، فالتقليد الشخصي يبقى جائزا.

الشبهة الثالثة والعشرون:

إن الأقوال التي يعمل بها المقلدون، لايتصل سندها إلى صاحب المذهب، فكيف يصح تقليدهم؟

الجواب:

لا حاجة للسند فيما تواتر من الأخبار، وإنما المـصير إليـه في الأخبـار الآحـاد، ولأجـل ذلـك لم يعتبروا سند القرآن كواجب، ونسبة هذه الأقوال إلى صاحب المذهب متواترة، فإن هناك عددا لايُحصى من الناس – ظلوا يتناقلون هذه الأقوال منذ حين صـدورها مـنهم، ولا يـضرنا إذا لم نبـين أسـماءهم وصفاتهم؛ فإن النسبة متيقنة، أو مظنونة في بعضها، ويكفى بها للعمل.

الشبهة الرابعة والعشرون:

تتعارض الروايات الفقهية في بعض المسائل، وتسكت عن الحكم في الجزئيات الجديدة الوقوع، ففي الصورة الأولى تترتب المفاسد التي تم ذكرها في عدم تعيين أحد المذاهب، وفي الثانية يجب المصير إلى الاجتهاد، مع أنكم قد أثبتّم انقطاع سلسلة الاجتهـاد، وكونَـه مؤديًـا إلى الفـساد، ففـي كلتـا الصورتين يلزم المحظور؟

الجواب:

المسائل المهمة التي يجلب الاختلافُ فيها المفاسدَ، ما بقيت مختلَفًا فيها أو مسكوتًا عنها. فقد

قـام الفقهـاء في أكثـر مثـل هـذه الروايـات بتمييـز الراجح من المرجوح، فلا مساغ للشبهة فيها. وأما الروايات التي لم يتميز راجحها من مرجوحها، وإنما هي متساوية الجانبين، فبما أنها قليلة بالنسبة إلى الروايات الأخرى، ومعقودة بأصول متحدة؛ لايلزم الإطـلاق الموجـب للفـساد. وأمـا الجـواب عـن الجزئيات المسكوت عنها فهو أيضا يظهر من أصول المذهب المحدد. و قد مر الجواب في الشبهة التاسعة أن مثل هـذا الاجتهـاد في بعـض النـوازل والقـضايا لايزال بابه مفتوحًا، فلا يلزم في ذلك الإطلاقُ الذي يوجب الفساد. ودرء المفاسد هو المقصود بالذات. كما مر الجواب حاليًّا في الشبهة الثانية والعشرين.

الشبهة الخامسة والعشرون:

هنـاك غـلاة يزعمـون التقليـد الشخـصي مثـل الفرائض والواجبات المقصودة بالذات؛ بل أكبر من ذلـك، ولا يلاحظـون شيئًا أحكـام الكتـاب والـسنة لغايـة جمـودهم، وهـذا مـن المعتقـدات الخاطئـة الفاسدة، وقد تقررت القاعدة في الشرع أن ما يؤدي إلى فـساد عقيـدة الخلـق و إغـوائهم يكـون محظـورًا فيجب المنع عن التقليد الشخصي؟

الجواب:

هـذه القاعـدة تخـص مـا لـيس مـن الواجبـات الشرعية، كما سبقت الإشارة إلى هذا التخصيص في نهاية المقـصد الخامس تحت حديث عمر رضي الله عنه الذي جاء فيه طلب الإذن بكتابة بعض أقوال اليهود. وما وجب شرعًا لو تسربت إليه المفاسدُ، تُدرأُ تلك المفاسد ويُنقَذ المسلمون منها، ولا يُحظر ذلك الواجب الشرعيُّ نفسه بسبب تلك المفاسد، وإلا فمن الظاهر أن تبليغ القرآن الكريم كان يزيد البعض ضلالةً، ولكن لم يُفرض المنع على التبليغ حتى لمدة يوم واحد، فلما ثبت وجوب التقليد الشخصي بالدلائل، فلو تطرق إليه الفساد يُدرأ عنه ولا يُمنع أبدًا عن التقليد الشخصي. وقد جاء المنع عن مثل هذا الغلو في عدة مواضع من هذه الرسالة تبعًا وضمنًا، وسيأتي في المقصد السابع أصالةً وقصدًا.

وقد جاء الرد في هذا الفصل على خمس وعشرين شبهة، وأرجو أن تكون هذه الأجوبة – بشيء من التبديل – شفاءً لغيرها من الشبهات – إن شاء الله تعالى. وإلا فهناك علماء كثيرون – تكفل الله حفظهم – في كل مكان، فليراجعوهم.

المقصد السابع: في النهي عن الإفراط والتفريط في التقليد، والتأكيد على التمسك بالاقتصاد

إنكـار التقليـد ورفـضه يـستحق الاسـتنكار والملامـة، كـذلك يجـب اسـتنكار الغلـو والتنطـع والجمـود والتطـرف في التقليـد، أن تقليـد المجتهـد لايكـون ظنًّا أنه هـو الشارع والمثبت للأحكام؛ بل باعتقاد أنه يبين الأحكام ويوضح الشرائع ويُظهر ما

أراده الله ورسوله من معنى. فيجب التقليد ما دام هو خاليا مما ينافي هذا الاعتقاد ويرفعه. فإذا كان هناك عالم – يملك سعة العلم وذكاء الفهم و وسطية الطبع – يتوصل اعتمادًا على تحقيق منه، أو هناك عامي صالح القريحة يتوصل اعتمادا على إخبار عالم من العلماء؛ يتوصلان إلى أن الراجح في المسألة هو الطرف الآخر، و شهد قلبهما بذلك، فيجب أن ننظر: هل هناك مجال لأن نعمل بذلك الجانب المرجوح بدليل من الأدلة الشرعية، فإن كان هناك مجال للعمل فالأولى والأمثل أن نعمل بذلك الطرف المرجوح – إذا أدى العمل بالجانب الراجح إلى إيقاع الفتنة بين الناس وتشويشهم – لئلا تتفرق على المسلمين كلمتهم، والدليل على ذلك ما يلي من الأحاديث:

الحديث الأول: عن عائشة رضي الله عنها أنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ لَهَا: أَلَمْ تَرَيْ أنَّ قَوْمَكِ لَمَّا بَنَوُا الكَعْبَةَ اقْتَصَرُوا عن قَوَاعِدِ إبْرَاهِيمَ؟ فَقُلتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، أَلَا تَرُدُّهَا علَى قَوَاعِدِ إبْرَاهِيمَ؟ قالَ: لَوْلَا حِدْثَانُ قَوْمِكِ بالكُفْرِ لَفَعَلْتُ(٥).

فائدة:

يعني أن النبي ﷺ لم يستقر رأيه على إعادة بناء الكعبة، خوفا منه أن يستنكر الناس ما يستنكرون من أن النبي ﷺ هدم الكعبة. فانظر: كان هناك من الراجح أن يُستأنف البناء على قواعد إبراهيم، ولكن النبي ﷺ فضَّل الطرف المرجوح – وهو ترك الكعبة على غير قواعد إبراهيم – الذي هو أيضا جائز وإن كان مرجوحا؛ ولم يكن ذلك إلا لدفع توهم الناس واستنكارهم. ولما اندفع هذا الاحتمال رَدَّها عبد الله بن الزبير على قَواعِدِ إبراهيمَ بناءً على هذا الحديث ، ولكن نقض الحجاج بن يوسف ما زاده وأعادها إلى بنائها السابق. فدلالة الحديث على ما أردناه جلية واضحة.

الحديث الثاني: أنَّ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ صلَّى بمِنى أربعًا فقال عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ مُنكِرًا عليه: صليتُ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ركعتَينِ ومع أبِي بكرٍ ركعتَينِ ومع عمرَ ركعتَينِ ومع عثمانَ صدرًا من إمارتِه ثم أتمَّها ثم تفرقَتْ بكم الطرقُ فلوددتُ أنَّ لي من أربعِ ركعاتٍ ركعتَينِ مُتقبَّلتَينِ،ثم إنَّ ابنَ مسعودٍ صلَّى أربعًا فقيل له: عِبتَ على عثمانَ ثم صليتَ أربعًا قال: الخلافُ شرٌّ(٦).

فائدة:

عُلم من هذا الحديث أن القصر في السفر وإن كان راجحًا عند ابن مسعود رضي الله عنه؛ إلا أنه أتم الصلاة – مع كونه مرجوحا عنده – لمجرد دفع الشر والخلاف، وقد رُوي أنه كان يراه جائزا.

فثبت بالحديثين المذكورين أن المرجوح إذا كان جائزا فهو أولى بالأخذ. وإن لم يكن هناك مجال للعمل بالمرجوح؛ بل يلزم منه المحظور أو ترك

الواجب، ولا يكون في الطرف المرجوح دليل سوى القياس، وفي الجانب الراجح يوجد حديث صحيح صريح، فيجب العمل بذلك الحديث دونما تردد، ولايجوز في ذلك تقليد إمام من الأئمة؛ فإن أصل الدين هو القرآن والحديث. والمقصود بالتقليد هو العمل بهما بصحة ويسرٍ. وإذا لم يوافق التقليدُ القرآنَ ولا الحديث، فالعمل بهما هو الواجب. والإصرار على التقليد حتى في مثل هذه الحال هو التقليد الذي ذمه القرآن والحديث واستنكره العلماء. فقد ورد في الحديث النبوي الشريف عن عدي بن حاتم الطائي قال: أتيتُ النَّبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وفي عنقي صليبٌ من ذَهبٍ. فقالَ: يا عديُّ اطرح عنْكَ هذا الوثَنَ وسمعتُهُ يقرأُ في سورةِ براءة اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ: أما إنَّهم لم يَكونوا يعبدونَهم ولَكنَّهم كانوا إذا أحلُّوا لَهم شيئًا استحلُّوهُ وإذا حرَّموا عليْهم شيئًا حرَّموه(٧).

فائدة:

يعني أنهم يُؤثِرون ما قاله أحبارهم ورهبانهم على كتاب الله تعالىٰ، مع علمهم بأن تلك الأقوال معارضة لكتاب الله، فهذا هو الذي ذمه الكتاب والسنة. أما سلفنا الصالح وكبارنا من العلماء والفقهاء فكان من عادتهم أنهم إذا علموا علم اليقين أن أقوالهم أو أقوال غيرهم تُعارض ما أمره الله ورسوله، ما لبثوا أن تركوه. فقد ورد عن عيسى بن نميلة، عن أبيه، قال: سُئِلَ ابن عمر عَنِ الْقُنْفُذِ، فَقَالَ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ الآية [الأنعام:١٤٥]، فَقَالَ شَيْخٌ عِنْدَهُ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: خبيثةٌ مِنَ الْخَبَائِثِ، فقال ابنُ عمر: إن كان رسولُ الله ﷺ قال هذا فهو كما قال(٨).

ولم يزل علماء الحنفية متمسكين بذلك، فقد سبق في الجواب عن الشبهة الرابعة والعشرين أنهم تركوا بعض أقوال إمامهم، ويتجلى بذلك كذب اتهامهم بالعصبية والتقليد الجامد، ومنشأ الكذب النظر في الروايات دونما دراية تامة في الأغلب. وثبت في المقصد الثالث عدم التعويل على مثل هذا النظر. ولكن لا يجوز أبدا - حتى في هذه الصورة التي يتركون فيها التلقيد لإمامهم – شيء من إساءة الأدب إليهم أو إطالة اللسان عليهم أو إساءة الظن بهم بأنهم خالفوا الحديث؛ لأنه يمكن أن الحديث لم يبلغهم أو بلغهم ولكن بسند ضعيف واهٍ، أو أوّلوه بقرينة شرعية، فهم معذورون. ويندرج في إطالة اللسان عليهم الطعنُ في كمالهم العلمي، فإن بعض الأحاديث لم تبلغ - إلى مدة - حتى بعض كبار الصحابة الكرام الذين لا نزاع في كمالهم العلمي-؛ ومع ذلك لم يُعدّ ذلك عيبا فيهم. فجاء في الحديث عن عبيد بن عمير في قصة استئذان أبي موسى على عمر، قال عمر رضي الله عنه: خفي هذا علي من أمر

رسـول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ألهـاني عنـه الـصفق بالأسواق(٩).

فائدة:

ففي هذه القصة تصريح بأن عمر بن الخطاب لم يكن مطلعا على حديث الاستيذان، ولكن لا نجد أحدا يَطعن عليه أنه قليل العلم بالأحاديث. فقس عليه المجتهد، فإن الطعن عليه مذموم. وكذلك لا يجوز الطعن على مقلده الذي يقلده، ولم ينشرح قلبه إلى الآن، ولا يـزال يُحسن الظـن بـأن المجتهـد لـن يخـالف الحـديث، فيقلـده ولا يـرفض الحـديث ولايفهـم مفـصلًا وجـه موافقـة عمـل المجتهـد للحديث. لأن هـذا المقلـد متمسك بـدليل الـشرع، ولايقصد إلا اتباع الشرع.

وكذلك لا يجوز لذلك المقلد أن يسُبّ من ترك التقليـد في هـذه المـسألة لمـا ذُكـر مـن العـذر؛ لأن اختلافهم إنما هو الاختلاف الذي يتوارثه السلف، وقد قال العلماء في ذلك: مذهبنا حق وصواب ظنًّا مع احتمال الخطأ، ومذهب غيرنا خطأٌ ظنًّا ولكن يحتمل الصواب، وبذلك يندفع ما يُتوهم من أنه لما ثبت أن الكل محق وصواب فلما ذا يُعمل بالواحد فقط؟ فإذا كان الآخر أيضا يحتمل الصواب فكيف يجوز تضليل أحد أو تفسيقه أو عزوه إلى البدعة أو تلقيبه بالوهابية أو الوقوع في التحاسد والتباغض والمكابرة والمنازعة والأخذ بطريق الغيبة والسب والشتم واللعن والطعن وغير ذلك مما هو حرام قطعًا.

نعـم، مـن يخـالف في العقائـد أو في المـسائل المجمع عليها أو يسبّ السلف الصالح فليس من أهل السنة والجماعة؛ فإن أهل السنة والجماعة هم من يسلكون في العقائد مسلك الصحابة الكرام، وهذه الأمور تعارض عقائدهم، فمثل هذا الرجل خارج مـن أهـل الـسنة، وداخـل في أهـل البـدع والهـوى. وكذلك إذا غلا أحد في التقليد حتى يرفض القرآن والحديث، فحذار مثلَ هذين الشخصين، وكذلك لابـد مـن الإعـراض عـن المجادلـة المتعارفـة معهـما. وهـذا هـو الحـق الوسـط، وأمـا ماعـدا ذلـك فغلـط وسقط. اللّٰهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه و الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

* * *

الهوامش:

(١) مقدمة ابن خلدون ١/٤٥٥.

(٢) ٤/١٤٥.

(٣) أخرجـه مطـولاً أبـو داود:٤٦٠٧، والترمـذي:٢٦٧٦، وابـن ماجه:٤٤، وأحمد:١٧١٤٤.

(٤) الأنفال: ٣٩.

(٥) صحيح البخاري، برقم: ١٥٨٣.

(٦) أخرجه أبو داود (١٩٦٠)

(٧) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)

(٨) سنن أبي داود: كتاب الأطعمة باب في أكل حشرات الأرض، حديث رقم: ٣٧٩٩ .

(٩) أخرجه البخاري:٧٣٥٣، ومسلم:٢١٥٣.

الإمام البزازي وكتابه «الفتاوى البزازية»

بقلم: الأستاذ/ عبد الرزاق القاسمي الأمروهي (*)

الأمة الإسلامية أمة ناهضة متجددة؛ تتجدد أحكامها المستمدة من الشريعة الإسلامية مع تجدد القضايا، لتثبت أنها صالحة لكل زمانٍ ومكانٍ، وقد نشأت المذاهب الإسلامية المتبعة من رحم هذه الأمة الخالدة، فجاءت الخلافات رحمة لها، فاستمدت أقلامهم من المدرسة المحمدية التي صقلت النفوس وهذبت الطبائع، لقد استطاع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يحول خدمات الجاهلية إلى عجائب للإنسانية بهذا الإيمان الواسع العميق.

ومما حبا الله تعالى هذه الأمة أن هيأ لها علماء أعلامًا، يحملون علوم الشريعة فاختار لذلك من كل خلف عدوله، ولا سيما علم الفقه باعتباره يشكل جزءًا مهمًّا من تلك العلوم، ولارتباطه الوثيق بحياة الإنسان؛ لأنه يرتبط ارتباطًا وثيقًا في العلاقات العامة، فهو ينظم علاقة الفرد مع خالقه جل وعلا، وعلاقة الفرد مع نفسه ومجتمعه، سواء كان على مستوى الفرد أو الجماعة.

ولقد أخذ الفقه الحنفي من بين هذه المذاهب الأربعة المتبعة أفقًا واسعًا، وانتشر في البلاد الإسلامية انتشارًا عجيبًا، وما ذلك إلا بتلقف طالبي العلم لهذا العلم الذي اتجه له العلماء ونهلوا منه، وأخذوا يعلمونه طالبي العلم الشرعي؛ ولذلك صار بهذا العلم الفقهي من العلماء أئمة يهتدى بهم ويحتذى، ومن هؤلاء الأئمة الإمام محمد البزازي الذي ذاع صيته بالآفاق؛ والذي وُصِف بالإمام والعالم وغيرهما من الصفات التي أطلقها العلماء عليه؛ وذلك لعلمه الغزير وعقليته الفذة، حتى أصبح مرجحا في المذهب، عندما يرى في المسالة ترجيحًا فيرجح هذا الرأي على ذلك كما يتجلى ذلك واضحًا من كتابه الفتاوى البزازية.

ولقد طلب مني أخي الفاضل المفتي محمد فرقان العثمان آبادي المهاراشتري - حفظه الله ورعاه - مديرُ مركز العلم صفة الإمام أبي هريرة ديوبند بأن أكتب تعريفًا موجزًا لهذا الكتاب الجليل، وفاءً لهذا العالم الذي انتشر علمه وذاع، وأصبح من الأئمة البارزين في المذهب، فلبيتُ دعوته وكتبتُ

(*) أستاذ قسم التخصص في الحديث
بالجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند، يوبي، الهند

دراسة موجزة عن حياته، وعن كتابه «الفتاوى البزازية» وخطة الدراسة كالآتي:

الأول: التعريف بشخصية الإمام البزازي ببيان اسمه وكنيته ونسبه وولادته ونشأته، وبيان مكانته العلمية وثناء العلماء عليه، وذكر بعض شيوخه وتلاميذه، وما ترك من مصنفاته القيمة بعد وفاته.

الثاني: التعريف بمؤلفه المشهور المعروف بـ«الفتاوى البزازية» بين كتب الحنفية، وذلك بذكر سبب تأليفه، وبيان منهج المؤلف فيه، وذكر بعض المصادر التي اعتمدها المؤلف في كتابه.

التعريف بشخصية الإمام البزازي:

اسمه: محمد بن محمد بن شهاب بن يوسف الملقب بالإمام حافظ الدين الكردي الحنفي الخوارزمي الشهير بالبزازي. نسبه ينسب إلى كردر - بفتح الكاف وسكون الراء-، وهي من طوائف الكرد، والكردر من خوارزم، وخوارزم ناحية من نواحي الترك.

ولادته ونشأته:

نشأ في بلدة «سراي» بالقرب من نهر «آئل»، ثم رحل إلى بلدة قريم، وأقام بها سنين، وناظر الأئمة والأعلام، ودارس الفقهاء، ثم رجع الى بلده، ثم رحل إلى بلاد الروم، وحاور الإمام شمس الدين الفناري، وقبل رحيله إلى الروم أكمل مصنَّفه المسمى «الجامع الوجيز» وهو المعروف بـ«الفتاوى البزازية».

مكانته العلمية وثناء العلماء عليه:

الإمام البزازي من أفراد الدهر في الفروع والأصول، حاز قصبات السبق في العلوم، أخذ عن أبيه ومهر واشتهر في بلاده، قال عنه القاضي سعد الدين بن الديري: إنه من أذكياء العالم.

شيوخه وتلاميذه:

إن المصادر لم تذكر لنا إلّا القليل من شيوخه وتلاميذه ومصنفاته؛ بالرغم من علميته ومكانته بين فقهاء المذهب الحنفي وفقهاء عصره.

شيوخه:

لم تذكر المصادر أن الإمام البزازي قد أخذ العلم عن شيوخ كثيرين، سوى أنها ذكرت لنا أنه أخذ العلمَ عن والدِه، وهو ناصر الدين محمد البزازي، حيث كان جامعًا للعلوم فروعًا وأصولًا، وأخذ عنه ابنه العلامة حافظ الدين محمد بن محمد بن شهاب البزازي.

تلاميذه:

ذكرت لنا المصادر مجموعة من تلامذته منهم:

١- إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل، وقيل في أبيه: سعد بن إبراهيم القاهري الحنفي قاضي العسكر، المتوفى سنة ثمانين أو زاد على الثمانين، قال عنه أبو بكر السخاوي: «ولا أستبعده أنه أخذ عن

شـيخنا؛ بـل بلغنـي أنـه أخـذ عـن حـافظ الـدين البزازي».

٢- ابن عربشاه أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم شهاب الدين أبو العباس الحنفي، المعروف بـابن عربـشاه، المتـوفى سـنة ٨٥٤هـ، أخـذ عنـه الفقـهَ وأصوله.

٣- شرف بن كمال الفريمي، قرأ ببلاده جميع العلوم سيما العلوم الشرعية، روي أنه قرأ على حافظ الدين ابن البزازي ودرس في بلده.

٤- المولى القريمي سيد أحمد بن عبد الله من بلدة قريم، قرأ بها على المولى حافظ الدين محمد بن محمد البزازي، وأقام بهما سنين إلى أن رحل البزازي عنها إلى بلاد ما وراء النهر، المتوفى سنة ٨٦٢هـ.

٥- العلامـة محيـي الـدين الكـافيجي، لُقِـب بذلك لكثرة اشتغاله بكتاب الكافية في النحو، أخذ العلـوم عـن العلامـة حـافظ الـدين البـزازي وغـيره، المتوفى سنة ٨٧٩هـ.

مصنفاته:

ذكرت المصادر عددًا من مصنفاته ومنها:

١- الفتاوى البزازية وتُعرف بالجامع الوجيز، وهو فتاوى في فقه الحنفية، وهو موضوع الدراسة.

٢- المناقب الكردرية: كتاب في سيرة الإمام أبي حنفية.

٣- مختصر بيان تعريفات الأحكام.

٤- آداب القضاء.

٥- شرح مختصر القدوري.

٦- مناسك الحج.

وهذه هي أهم مؤلفاته كما ذكرتها المصادر.

وفاته:

أمـا عـن وفاتـه فقـد ذكـرت لنـا أكثـر المـصادر واتفقت على أنه توفي في أواسط رمضان سنة سبع وعشرين وثماني مئة.

مكانة كتاب «الفتاوى البزازية» بين كتب الحنفية

« الفتـاوى البزازيـة» كتـاب جـامع لخـص فيـه زبدة مسائل الفتاوى والواقعات من الكتب المختلفة مـا سـاعده الـدليل ورجـح وسـماه «الجـامع الـوجيز» حتى قال عنه أبو السعود المفتي - عند ما قيل له: لم لا تجمع المسائل المهمة، ولم تؤلف منها كتابًا فقال-: أنا أستحيي من صاحب البزازية مع وجود كتابه؛ لأنه مجموعة شريفة جامعة للمهمات على ما ينبغي. و جُمِعَتْ هذه الأحكامُ الفقهيةُ باللغة العربية السهلة السلسة على أحسن وجه يكون، قد لبست من حسن الترتيب حُلَّة الجمال، عاريةً عن الإطناب والإملال، مشتملةً على جل الدرايات النجيحة، واحتوت على عـرضٍ موثـوق بـه للمـسائل الـصَّعْبة المعقَّـدة، ولأحكـام الـشريعة وقوانينهـا واجتهاداتهـا، وذلـك بأحسن طرازٍ حيث لا يعاني باحثٌ شرعيٌّ أيَّ جهدٍ في البحث عن المسائل المطروحة، ولقي هذا الجهد

الجماعـي إقبـال النـاس إقبـالًا منقطـع النظـير، وذاع صِيته أكثر من مجهودٍ فرديٍّ.

منهج المؤلف في الكتاب:

عند قراءة هذا الكتاب نجد أن المؤلف قد اتبع فيه المنهج الآتي:

١- عـرض المؤلـف كثـيرًا مـن كتـب الحنفيـة الفقهيـة، وعـرض كثيرًا مـن آراء علـماء المـذهب مـع تعرضه لبعض آراء المذاهب الأخرى.

٢- لم يعتمـد المؤلـف التعريفـات اللغويـة والاصطلاحية.

٣- قلـما يـذكر الأدلـة الـشرعية التـي اعتمـدها العلماء في آرائهم، واقتصر على ذكر الآراء فقط.

٤- اتبـع أسـلوب التبويـب للمسائل بحسب الأبواب الفقهية، فقسم كتابه إلى كتب رئيسة، وكل كتاب قسمه إلى فروع.

٥- لقـد سـار عـلى منـهج مـن سـبقه مـن علـماء المـذهب الحنفـي في نقـل الآراء ومناقـشتها، وذكـر الـرأي الـراجح منهـا كقولـه: «وبـه يفتـى» أو «وهـو الـصحيح» أو «وعليـه الفتـوى» أو «عليـه أكثـر المشايخ» أو «وبه نأخذ» أو «وهو الأصح» وغيرها.

٦- الإكثـار مـن ذكـر التفريعـات الفقهيـة في المسألة الواحدة.

٧- أجاد المؤلف عرض المسائل الفقهية في كلّ بـاب، وجمـع في كـلّ مـسألة أقـوال العلـماء، واعتمـد الأقوال المشهورة في هذا المذهب.

٨- كـان رحمه الله في بعض الأحيان ينقل من نص الكتاب، وفي البعض الآخر يتصرّف في النص.

٩- لقد أكثر المؤلف من النقول في الفكرة التي يريـد إبرازهـا؛ ممـا سـبب تكـرارًا في إيـراد الفكـرة نفسها.

بعض المصادر التي اعتمدها المؤلف في كتابه:

ومن الحقائق التي لا تُجْحَد أن هذه «الفتاوى البزازية» تستند بصورةٍ رسميةٍ إلى المصادر والمراجع الموثوق بها في المذهب الحنفي، وتُعْتَبر خطوة رائعة في تـاريخ قـوانين الـشريعة الإسـلامية، وحقًّـا وهـي تتفـوق عـلى المجموعـات الفقهيـة الأخـرى التـي تـمَّ إعـدادها قبلهـا، وأن الكتـب التاليـة تعتـبر مـن أهـم مراجع الشريعة الإسلامية التي تمَّ الاستناد إليها في تحضير «الفتاوى البزازية»:

١- «الهداية في شرح بداية المبتدي» لِعلي بن أبي بكر بـن عبـد الجليـل المرغيناني، أبـو الحسن برهـان الـدين (المتوفى:٥٩٣هـ).

٢- «الوقايـة وشرحهـا» لـصدر الـشريعة الأصـغر عبيـد الله بـن مـسعود بـن محمـود المحبـوبي البخاري الحنفي (المتوفى ٧٤٧هـ).

٣- «النقاية مختصر الوقاية في مسائل الهداية» لـصدر الـشريعة الأصـغر عبيـد الله بـن مـسعود بـن محمود المحبوبي البخاري الحنفي (المتوفى ٧٤٧هـ).

٤- «كنز الدقائق» لأبي البركات عبد الله بن أحمد حافظ الدين النسفي (المتوفى ٧١٠هـ).

٥- «مختصر القدوري في الفقه الحنفي» لأحمد بن محمد بن أحمد أبي الحسين القدوري (المتوفى ٤٢٨هـ).

٦- «المحيط البرهاني في الفقه النعماني» لأبي المعالي برهان الدين محمود بن أحمد بن عبد العزيز بن عمر بن مَازَةَ البخاري الحنفي (المتوفى: ٦١٦هـ).

٧- «الجامع الصغير» لأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني (المتوفى: ١٨٩هـ).

٨- «الكافي في فروع الحنفية» للإمام محمد بن محمد بن أحمد المروزي الحاكم الشهيد (المتوفى٣٤٤هـ).

٩- «منية المصلي وغنية المبتدي» لمحمد بن محمد بن علي الكاشغري (المتوفى٧٠٥هـ).

١٠- «فتاوى نوازل» للإمام أبي الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي الحنفي (المتوفى ٣٧٣هـ).

١١- «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع» لعلاء الدين، أبي بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي (المتوفى:٥٨٧هـ).

١٢- «المجتبى شرح مختصر القدوري» لأبي الرجاء نجم الدين مختار بن محمد بن محمود الزاهدي الغزميني، (المتوفى:٦٥٨هـ).

١٣- «العناية شرح الهداية» لمحمد بن محمد بن محمود، أكمل الدين أبو عبد الله ابن الشيخ شمس الدين ابن الشيخ جمال الدين الرومي البابرتي (المتوفى:٧٨٦هـ).

١٤- «جامع المضمرات والمشكلات في شرح مختصر القدوري» للإمام يوسف بن عمر بن يوسف الكادوري، (المتوفى ٨٣٢هـ).

وغيرها من الكتب الفقهية التي تلقتها العلماءُ بالقبول كما ذكرت المصادر العلمية.

الخاتمة:

أخيرًا يمكن القول بأن مسائل «الفتاوى البزازية» كلها مبنية على الأصول الشرعية والأقوال الراجحة، تدل على ذلك عبارات الكتاب والمنهج الذي اتبعه مؤلف لحل المسائل الفقهية، فهو كتابٌ فريدٌ ضخمٌ؛ بل موسوعةٌ شاملةٌ للمسائل الشرعية في الفقه الحنفي، حتى أصبح مرجعًا موثوقًا به لأهل الفتاوى، وقد تداولتها أيدي العلماء بالقبول والعناية؛ و قد حاولت قدر المستطاع استعراض المنهج المتبع في ثنايا الكتاب، وإلقاء الضوء الخاطف على أهميته وميزاته لدى العلماء، أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع بهذا الأثر العلمي الجليل، إنه بكل جميل كفيل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

* * *

* *

الأسرة بين الشرق والغرب

بقلم: **الأستاذ/ محمد شعطيط**

نشر أحد المواقع الإلكترونية خبرًا مفاده أن محكمة بريطانية قضت بسجن شاب في العشرين من عمره ستة أسابيع، ومنعته من إرسال شتائم إلى والدته عبر موقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك»، كما أمرته بعدم الاتصال بوالدته بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

زرع الغرب رياح الماديات والعنف واللذة والانحراف ومعاداة الأديان والتمرد على السنن الإلهية، فحصد عواصف من العقوق والتفكك الأسري والجريمة والقتل.. ومازال عقلاؤه ينادون بتدارك الأمر قبل فوات الأوان، ولكن أمواج الحضارة الزائفة غلبت مظلتهم اليتيمة، فأغرقت أصواتهم وسط بحر من دعاة اللذة والمتاجرين بالمنفعة المادية على حساب القيم والمبادئ.

وقد دعا أحد كبار مسؤولي الأمن في إحدى الدول الغربية الفتيات إلى الاحتشام في اللباس وستر المواضع الحساسة من أجسادهن بعد وقوع جريمة اغتصاب في مدينته، فقامت الدنيا ولم تقعد مستنكرةً هذا التصريح، ومعتبرةً إياه تدخلا في الشؤون الشخصية، وحجرًا على الحريات، ودعوة إلى الرجعية والظلامية، ونوعًا من التزمّت المرفوض في المجتمع الغربي.

لقد أسمعت لو ناديت حيا

ولكن لا حياة لمن تنادي

لقد علم الغربيون أن الطريق الذي يسلكونه هو أحد أسباب هلاك حضارتهم، وأن المدنية الغربية سيدكّها بأداتها قرن نطوح يهوي بها إلى مجاهيل التاريخ بعد أن فشت فيهم الفاحشة وأعلنوا بها؛ بل شجعوها ودعوا إليها وموّلوها وحموها بقوانين، وجعلوها من حقوق المواطن ورمزا للحضارة والتقدم والعالم الحر.

إن مقارنة بسيطة بين الأسر المسلمة والأسر الغربية ليظهر ذلك البون الشاسع بين حضارة نبراسها القرآن وسنة سيد ولد عدنان، وبين حضارة

زائفة زائلة قامت على شفا جرف هار يوشك أن ينهار بها في واد من أودية الهلاك.

وهـذه المقارنـة ليـست عـلى إطلاقهـا؛ لكـن أحكامها تقع على الغالب، فقد تكون هناك بعض الأسر المسلمة التي تجد بها من السلوكات شبيه ما عند الغرب، وقد نجد أسرا غربية فيها من الأخلاق ما نجده تماما في مبادئ الإسلام، فالعبرة بالعموم لا بالأحوال الخاصة والاستثناءات.

١- أول مـا يـستوقف الباحـث طهـارة رحـم المـرأة المـسلمة، وهـي لا تحتـاج – بحمـد الله – إلى بحوث أو دراسات، كما نشر أخيرا عن أميركي قام بدراسة حول الأرحام عند مختلف الأجناس، فوجد أن رحم المرأة المسلمة من أطهر الأرحام على وجه البسيطة، بينما نجد الغرب يشكو من انتشار أولاد الزنا، والحمل خارج نطاق الزواج، وارتفاع نسب الإجهـاض، وحمـل المراهقـات، حتـى أصـبحت الإحصاءات تتحدث عن أرقام مرتفعة من الفتيات اللاتي يصرن حاملات في سن مبكرة قبل أن يبلغن الثانوية، بله الجامعة.

٢- اعتناء الأسر المسلمة بالرضيع من حيث إرضـاعه طبيعيًّـا وتمتيعـه بالقـدر الكـافي مـن الحنـان والعطـف، عكـس مـا يعانيـه الطفـل في الغـرب مـن افتقاده لدفء الأم وحنانها واستعاضتها بالرضاعة الاصطناعية أو تقديمه لمربيات داخل المنزل أو في دور الحضانة.

٣- الانـسجام والـتلاحم بـين أفـراد الأسرة المسلمة في شتى المجالات، حتى بعد كبر الأبناء وتـزوجهم، حيـث تبقـى العلاقـة وطيـدة والعائلـة متماسكة، تجتمع في المناسبات الدينية والاجتماعية تحت سقف واحد رغم تباعد المسافة ومشقات السفر.. بينما نجد الأسر في الغرب تشكو من الشقاق والقطعية، فأغلب الزيجات يحصل فيها الطلاق، حتى قبل بلوغ الأطفال سن المراهقة، ففي بريطانيا وحدها التي تعرف أكبر نسبة للتفكك الأسري لا يعيش سوى ٦٨٪ من الأبناء مع والديهم، كما أن من بين ١٠٠٠ طفل نصفهم تقريبا ينفصل آباؤهم قبل بلوغهم سن السادسة عشرة، وهـذه النسب متقاربة في المجتمعات الأوروبية وأميركا، دون الحديث عن تحدي الأبناء لآبائهم عند بلوغهم سن ١٨، وهو السن القانوني الذي يخول للابن أن يتصرف كيف يشاء، دون أن يحق لوالديه أن يتدخلوا في شؤونه إلا من باب الاستشارة والرأي، إن ظل يستمع لرأيهم.

٤- عند الأسر المسلمة تتم العناية بإنجاب

الأبناء واعتبارهم امتدادا لوالديهم ورجاء دعائهم بعد الوفاة، أما عند الغرب فإن الإنجاب عندهم أعز من عنقاء مغرب، لأنه في نظر الكثير من نسائهم تقييد لحريتهن وتكبيل لهن، ووأد لشبابهن في توفير متطلبات الرضيع من اهتمام وعناية وتنظيف ورضاع وغيرها. حتى أصبح الغرب يشتكي من انخفاض معدلات الإنجاب، وأصبح يتحدث عن انقراض المجتمعات الغربية بعد أن أصبحت الأسر الوافدة من الدول المسلمة تنجب أكثر مما تجب الأسر الغربية نفسها، حتى إن دولا مثل بريطانيا بلغت نسبة الأطفال فيها في الأسرة الواحدة ١,٨ وهو رقم مخيف، نظرا للشيخوخة التي بدأت تغزو المجتمعات الغربية عموما.

٥- عواطف جياشة وصلة للرحم وتواصل بين أفراد الأسر المسلمة، في حين نجد برودة العواطف بين أفراد الأسرة في الغرب؛ فلا يزور الأبناء آباءهم إلا في مناسبات قليلة بينها أعياد الميلاد، هذا إذا تذكروه، وقد يكتفون بإرسال بطاقة تهنئة أو بريد إلكتروني، أما إذا شاخ الأب أو هرمت الأم فإن مكانهما دور العجزة، فهي الكفيلة بالعناية بهما في مجتمع همه الوحيد هو التمتع بالملذات، ولا وقت لديه للعناية بأمه المريضة أو أبيه العجوز، مادام أنه سيدفع المال لمن ينوب عنه في هذه المهمة، ومن الطرائف التي وردت في هذا الباب أن أبًا دخل على ابنه وهو يرسم منزلا فسأله عن عدد الغرف وساكنيها.. فأجاب الطفل ببراءته: هذه لي، وهذه لزوجي، وهذه لأبنائي. فقال الأب: فأين غرفتي أنا وأمك؟ قال الابن: لا توجد لكما غرفة في بيتي، لأنكما حينها ستكونان في دار العجزة. ففطن الأب إلى خطئه فذهب لتوّه ورد أباه إلى المنزل بعد أن كان قد وضعه في أحد دور رعاية كبار السن.

وفي مقابل هذه السلوكات وأضرابها التي – للأسف – أصبحنا نسمع عنها حتى في بعض الأسر المسلمة؛ يأتي البيان القرآني الشافي الذي يسيل عذوبة ورقة، ويسري في جسد المرء من ناصيته إلى أخمص قدميه، معلنا الصلة القوية بين عبادة الله عز وجل وبر الوالدين، صلة لا تنقطع ولن تنقطع، مادامت السماوات والأرض، ومهما تقدم الإنسان وبلغ من منازل الحضارة ما بلغ، يقول الله عز وجل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا

رَبَّيَانِي صَـغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ (الإسراء: ٢٣-٢٤)، ليس في الكـون خطـاب يـدعو إلى الاعـتراف بالـصنيع، ورد الجميل، وعرفان الفضل لذوي الفضل من دعوة القرآن الكريم إلى بر الوالدين بهذا الأسلوب الندي الذي يقطر رحمة ولينا وأدبا وحنوا وذلا ودعاء.

إن الغرب قد استطاع – على حد تعبير أحد أبنائه – أن يطير في الهواء كالطير، وأن يسبح في المياه كالأسماك، لكنه لم يتعلم بعد كيف يمشي على الأرض.. انهمك في التجديد والتحديث على مستوى التقنية والصناعات والابتكارات العلمية، لكن هذا التقدم على المستوى التقني لم يقابله تقدم على المستوى الروحي والاجتماعي، فانتشرت الجريمة والسرقة والقتل والنهب، وأصبح الغرب يتحدث عن نسب مهولة من التفكك الأسري والتمزق الاجتماعي.

لقد عملت الحياة الحديثة على تغيير طبيعة العلاقات بين أفراد الأسر، وأصبح الاهتمام الأكبر ينصب على المادة بدل الروح، كما انشغل الناس بالمظهر على حساب الجوهر، وأصبح الطفل ينال العقوبة إذا أتلف الأشياء الباهظة الثمن، لكنه لا يقابل بالأسلوب نفسه ولا يعاب عليه إذا ترك فريضة من الصلوات، فتعاظم عنده حب ما عظم الأبوان، وتصاغر عنده ما همشاه وأقصياه من حسبانهما.

فلنعد تقييم الأشياء، ولنعظم ما عظمه الله، ولنغرس في الأبناء تعظيم الأخلاق والقيم، ولنستجب لدعوة النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في توقير الكبير ورحمة الصغير، وأن نعرف لعالمنا حقه.. بهذه الأخلاق سادت الأمة الإسلامية سائر الأمم، وتقدم قطار الحضارة ردحا من الزمن، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

إن الحضارة الغربية تكاد تعلن إفلاسا شاملا في مختلف المجالات، فبعد الأزمات الاجتماعية والأخلاقية جاء دور الأزمات المالية والاقتصادية والسياسية، وإن عقلاء الغرب يدقون ناقوس الخطر، فهل آن أوان العاقلين منا أن يكفوا عن دخول جحر الضب، واتباع سنن من قبلهم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، وأن يلتزموا نهج الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتعيش أسرنا في نعيم مقيم، تعامل فيه الأمهات في بيوتهن معاملة الملكات، كما تمنت ذلك إحدى الغربيات.. نرجو ذلك، وما هو على الله بعزيز.

* * *

* *

الحروف المقطعة

بقلم: الدكتور/ عبد العزيز بن عبد اللَّه العمار حفظه اللَّه

هي تلك الحروف التي افتتح الله بها بعض سور القرآن، وقد تعددتْ هذه الحروف وتنوعتْ ما بين: (ألم، وألمص، وألر، وألمر، وكهيعص، وطسم، وطس، ويس، وص، وحم، وعسق، وق، ون)، وقد اختلف العلماء في معاني هذه الحروف، وكثرتْ أقوالهم، وتعددتْ، فقل أن تجد تفسيرا إلَّا يشير في مقدمة كتابه إلى هذا الاختلاف، وإلى تلك الأقوال وتعددها، نجد هذا عند المفسرين على امتداد القرون والعصور، فها هو الأخفش في القرن الثالث (٢١٠هـ) يشير إلى ذلك قائلًا: «وقد اختلف الناس في الحروف التي في فواتح السور»[١]، وفي القرن الرابع نجد الطبري (٣١٠هـ) يذكر الأمر نفسه قائلًا: «ولقد اختلفتْ تراجمة القرآن في تأويل قول الله – تعالى – (ألم)»[٢]، وفي القرن الخامس نجد الواحدي (٤٦٨) يُشير إلى هذا في تفسيره قائلًا: «فقد كثر اختلاف الناس في هذه الحروف المقطعة، وأشباهها في القرآن»[٣]، وظل العلماء الواحد تلو الآخر يشيرون إلى تعدد هذه الأقوال وكثرتها، واختلاف العلماء فيها، حتى قال السيوطي: «قد تحصل لي فيها عشرون قولًا وأزيد»[٤]، ثم يأتي – من المتأخرين – الطاهر بن عاشور ويُوصلها إلى واحد وعشرين قولًا بعد أن يحذف منها المتداخل والمتشابه[٥].

وسأذكر هذه الأقوال، وأصحابها، ثم أنظر فيها نظرة ترجيح وتدقيق، وما يصح منها وما لا يصح، فيرى فيها فريقٌ من العلماء رأيًا ملخصه: أن لكل كتاب سرًّا، وسرُّ القرآن فواتحه، وأن الله لم يجعل لأحد سبيلًا إلى إدراك معانيها، وأنها مما استأثر الله بعلمها، فنحن نؤمن بظاهرها، ونَكل علمها إلى الله[٦]، وأن فائدة ذكرها طلبُ الإيمان بها، وأن لكل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي[٧]، وأننا نؤمن بها، وتُمرُّ كما جاءت[٨]، وأنها مما عجز العلماء عن إدراكها[٩]، وأن كثيرًا من العلماء ردُّوا علمها إلى الله، ولم يفسروها[١٠]، وأنها من المتشابه جريًا على مذهب السلف القائلين باختصاص الله بعلم المراد منها[١١]، وألَّا نتكلم بشيء من ذلك، مع الاعتراف بأن في إنزالها حكمةً لله – عزَّ وجل – لا تبلغها عقولنا، ولا تهتدي إليها أفهامنا، ولا تحيط بها علومنا[١٢]، وأن جهل أمثالنا بالمراد بها لا يَضرُّ؛ فإن من الأفعال التي كُلفنا بها ما لا نعرف وجه الحكمة فيه، والطاعة فيه أدل على كمال الانقياد، ونهاية التسليم، ويكون المقصود من

ذلك ظهور كمال الانقياد من المأمور للآمر، ونهاية التسليم والامتثال للحكيم القادر[١٣]، وأن الأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند شرعي، مع الجزم بأن الله لم يُنزلها عبثًا بل لحكمة لا نعلمها[١٤]، وأننا نفوض الأمر فيها إلى الله، ويَسَعُنا في ذلك ما وسع صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم، وليس من الدين في شيء أن يتنطع متنطع فيخترع ما يشاء من العلل التي قلما يسلم مخترعها من الزلل[١٥]، وممَن قال بهذا القول: الخلفاء الراشدون، وابن عباس، وابن مسعود – رضي الله عنهم أجمعين – والشعبي، وسفيان الثوري، والربيع بن خيثم، وأبو حاتم بن حبان، وأبو حيان الأندلسي[١٦]، والقطربي[١٧]، والسيوطي[١٨]، والآلوسي[١٩]، ومحمد عبده[٢٠]، والشوكاني[٢١]، وجماعة من المحدثين وغيرهم.

ويقابل هذا الرأيَ رأيٌ آخر، يرى أصحابه أنه يجب أن يُتكلم فيها، وتُلتمس الفوائد التي تحتها، والمعاني التي تخرج إليها[٢٢]، وقالوا: لا يجوز أن يرد في كتاب الله ما لا يكون مفهومًا للخلق[٢٣]، وذكروا أنها معلومة المعاني[٢٤]، وقالوا: إن لهذه الحروف تفسيرًا، ويُطلب لها التأويل؛ لأننا نجد العرب قد تكلمت بالحروف المقطعة كما ورد ذلك في شعرها ونثرها[٢٥]. والشواهد في هذا كثيرة، «فليس كونها في القرآن مما تُنكره العرب في لغتها، فينبغي إذا كان من معلوم كلام العرب أن يُطلب تأويله، ويُلتمس وجهه»[٢٦].

فيذكر أصحاب هذا الرأي أن لهذه الحروف معاني؛ ولكنهم مختلفون في معناها على أقوال كثيرة، وأشهر هذه الأقوال:

(١) أنها حروف يُستفتح بها، فقد جاء الابتداء بها ليُعلم أن السورة التي قبلها قد انقضتْ، وأنه قد أَخَذ في أخرى، فجُعلتْ هذه الحروف علامة لانقطاع ما بينهما، وذلك موجود في كلام العرب[٢٧].

(٢) وقيل: إنما هي حروف إذا وصلتْ هجاء لشيء يُعرف معناه، وقد أُوتي بعض الناس علم ذلك، وذلك أن بعضهم كان يقول: (ألر) و(حم) و(ن) هذا هو اسم الرحمن، وما بقي منها فنحو هذا، وقالوا إن: قوله: (كهيعص) معناه: كافٍ، هادٍ، عالم، صادق، فأظهر من كل اسم منها حرفًا ليُستدل به عليه[٢٨].

(٣) وقيل: هو اسم للسورة[٢٩].

(٤) وقيل: هو اسم من أسماء الله.

(٥) وقيل: هو اسم الله الأعظم.

(٦) وقيل: هو قسم أقسم الله تعالى بهذه الحروف؛ لشرفها وفضلها، لأنها مباني كتبه المنزلة بالألسنة المختلفة، ومباني أسمائه الحسنى، وصفاته العلى، فكأنه أقسم بهذه الحروف أن القرآن كتابه، وكلامه لا ريب فيه.

(٧) وقيل: هي حروف مقطعة من أسماء وأفعال

كل حرف منها لمعنى غير معنى الحرف الآخر.

(٨) وقيل: هي حروف من حروف المعجم أُستُغني بذكر ما ذُكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفًا، كما استُغني المُخْبِر عن ذكر حروف المعجم الثمانية والعشرين بذكر (أ ب ت ث) عن ذكر بقية الحروف.

(٩) وقيل: معنى هذه الحروف هي ذلك الكتاب الذي وعدتك أن أُنزله عليك، لأن قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ (الأعلى:٦) وعد من الله أن يُنزل عليه كتابًا، فلما أنزل عليه القرآن قال: (ألم) ذلك الكتاب الذي وعدتك أن أقرئكه فلا تنسى، فاكتفى من حروف (أ ب ت ث) بـ(ألم، وألمص) وأشباه ذلك، والعرب تُكني ببعض الشيء عن كله[٣٠].

(١٠) ولقطرب في معناها، يقول: لما لغا القوم في القرآن فلم يفقهوه حين قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ (فصلت:٢٦) فلما نزلتْ هذه الحروف سكتوا لما سمعوها طمعًا في الظفر بما يحبون ليفهموا – بعد هذه الحروف – القرآن وما فيه فتكون الحجة عليهم أثبت إذ جحدوا بعد تفهم وتعلم[٣١].

(١١) أن يكون ورود هذه الأسماء هكذا مسرودة على نمط التعدد كالإيقاظ وقرع العصا لِمن تُحدي بالقرآن وبغرابة نظمه، وكالتحريك للنظر في أن هذا المتلو عليهم – وقد عجزوا عنه عن آخرهم – كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم[٣٢].

(١٢) ولعل له صلةً بما قبله: أن ورود السورة مصدرة بهذه الحروف قرع للأسماع، وليستقل كذلك بوجه من الإغراب، وتقدمة من دلائل الإعجاز.

(١٣) أن هذه الحروف أمارة جعلها الله لأهل الكتاب أن سيُنزِل على محمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كتابًا في أول سورة منه حروف مقطعة[٣٣].

(١٤) وقيل: هي تنبيه، كـ: (يا) في النداء.

(١٥) وقيل: هي حروف كل واحد منها إما أن يكون اسمًا من أسماء الله، وإما نعمة من نعم الله، وإما اسم ملك من الملائكة، أو نبي من الأنبياء.

(١٦) وقيل: إن الله إنما ذكرها؛ لأن في التقدير كأن الله قال: اسمعوها مقطعة حتى إذا وردتْ عليكم مؤلفة كنتم قد عرفتموها قبل ذلك، كما أن الصبيان يتعلمون هذه الحروف أولًا مفردة ثم يتعلمون المركبات[٣٤].

(١٧) وقيل: إن هذه الحروف ثناء أثنى الله – عزَّ وجلّ – على نفسه.

(١٨) وقيل: هي إشارة إلى حروف الهجاء أعلم اللهُ بها العربَ حين تحداهم بالقرآن أنه مؤتلف من هذه الحروف التي منها بناء كلامهم، ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم، إذ لم يخرج عن كلامهم[٣٥].

هذه هي مجمل الأقوال التي قيلت في الحروف المقطعة، والناظر فيها يرى أنها ترجع إلى رأيين اثنين لا تخرج كل الأقوال عنهما، رأيٌ يرى أنه من الأسلم السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند شرعي، مع الجزم بأن الله لم يُنزلها عبثًا؛ بل لحكمة.

ورأيٌ يرى خلاف ذلك، إذ يرى أنه لابد من الوقوف على معناها، ثم راح بعد ذلك يذكر الأقوال في معناها وتفسيرها، كما تقدم بسط هذين الرأيين.

أما القول الثاني الذي يرى أصحابه أن ليس في القرآن شيء لا يُعرف معناه، واستدلوا على ذلك بالآيات والأخبار والمعقول[٣٦]، فيُقال لهم: هذا صحيح والأمر كما قلتم، ولكن ليس في القول الأول ما يدل على أن في القرآن شيئًا لا يُعرف معناه، وأما قولهم: إنها (سرٌّ) فقد يكون هذا إشارة منهم «إلى التباس أمرها، وصعوبة الوصول إلى المراد منها»[٣٧]، والذي دفعهم إلى هذا التوقف والسكوت هو خوفهم من الخوض والتقول على الله بغير علم، كيف وكثير منهم من صحابة رسول الله ﷺ وكبار التابعين، فهم من ذلك الجيل الذي رباهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تعظيم كتاب الله، والخوفِ من التقول فيه بغير علم، وحسبهم واعظًا في ذلك وزاجرًا ما سمعوه من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محذرًا من القول في القرآن برأيه، وبما لا يعلم، فعن جندب بن جنادة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ»[٣٨].

وإذا تتبعنا أقوال أصحاب الرأي الأول نجدهم يحذرون من القول فيها من غير مستند شرعي، ويردون علمها إلى الله مع يقينهم أن لها معنى، وأن في إنزالها حِكَمًا قد اشتملتْ عليها، وقد ذكر ابن كثير كلامًا نفيسًا في هذا الباب حينما قال: «لاشك أن هذه الحروف لم يُنزّلها – سبحانه وتعالى – عبثًا ولا سدى، ومَن قال من الجهلة: إن في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية فقد أخطأ خطأً كبيرًا، فتعين أن لها معنى، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به، وإلّا وقفنا حيث وقفنا، وقلنا ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ (آل عمران:٧)[٣٩]، فهذا هو منهجهم، وذا رأيهم، وهذا ما دفعهم إلى هذا القول من غير أن يزعموا أن في القرآن شيئًا لا يُعرف معناه، إذ «لايجوز أن يكون الله أنزل كلامًا لا معنى له، ودليل هذا إجماع السلف، فإنهم فسروا جميع القرآن، قال مجاهد: عرضتُ المصحف على ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية فأسأله عنها»[٤٠].

والذي يسترعي النظر في الرأي الثاني هو أن أصحابه لم يُجْمِعوا على قول معين؛ بل ساروا في دروب شتى «وذلك أن أكثر تلك الأقوال التي قيلت لا يُبنى أي منها على قاعدة مضبوطة، أو معايير محددة؛ بل هي باب مفتوح لكل من أراد أن يدخل منه، ولكل من أراد أن يقول فيه بمجرد الظن

والـوهم والتخمـين»[٤١]، ولي مـع هـذا الـرأي عـدة وقفات:

الوقفة الأولى: فسر كثير منهم هذه الحروف بأنها أسماء لله – عزَّ وجل –، أو أنها أسماء للملائكة، أو أنها أسماء لأنبيائه، أو أنها أسماء لسور القرآن، فيُقال لهم: من عقيدة أهل السنة والجماعة في أسماء الله، وصفاته أنها توقيفية، يُوقف منها على ما جاء في كتاب الله، وما صح من أحاديث رسول الله ﷺ، كما حكى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية حينما قال: «والقول الشامل في جميع هذا الباب أن يُوصف الله بما وصف به نفسه، أو وصف به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل»[٤٢]، وقد ورد عن رسول الله ﷺ في حديث صحيح متفق عليه قوله: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا مَن أحصاها دخل الجنة»[٤٣]، وأما ذكر هذه الأسماء التسعة والتسعين فقد ذكرها الترمذي[٤٤]، وابن ماجه[٤٥] على اختلاف بينهما في الرواية في تعدادها، فهذه الأحاديث الصحاح في أسماء الله لم يرد فيها شيء مما ذكروا.

ويجري على هذا أسماء الملائكة فإنها توقيفية على المصدرين: الكتاب والسنة؛ لكونها غيبية مصدرها الوحي.

وأما مَن قال إنها أسماء لرسول الله ﷺ فيُقال لهم: هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين، إذ لم يثبت عنه في حديث صحيح – فيما أعلم – أن هذه الحروف أسماء له؛ بل ثبت عنه أنه ذكر أسماءه ولم يذكر منها هذه الحروف المقطعة، فعن جبير بن مطعم عن أبيه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لي خمسة أسماء: أنا محمد وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب» متفق عليه[٤٦]، فهذه أسماء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فيما صح عنه – ولم يرد فيها شيء مما ذكروا.

وأما أنها أسماء لسور القرآن، فإن أسماء القرآن توقيفية كذلك على ورود النص من الشارع الحكيم، وفي ذلك يقول السيوطي «وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار»[٤٧]، ولو كانت هذه الحروف المقطعة أسماء لسور القرآن «لوجب أن يُعلم ذلك بالتواتر؛ لأن هذه الأسماء ليستْ على قوانين أسماء العرب، والأمور العجيبة تتوافر الدواعي على نقلها، ولاسيما فيما لا يتعلق بإخفائه رغبة أو رهبة، ولو توافرتْ الدواعي على نقلها لصار ذلك معلومًا بالتواتر، وارتفع الخلاف فيه، فلمَّا لم يكن الأمر كذلك علمنا أنها ليست من أسماء سور القرآن»[٤٨] إذن فجميع ما تقدم من أسماء الله وملائكته، وأسماء رسله، وأسماء القرآن كذلك كلها توقيفية، ولم يرد شيء صحيح يُعَول عليه في ذلك.

ولقائل أن يقول بعد هذا: هل ثبت عن رسول الله في هذه الفواتح شيء يصلح للتمسك به؟ يجيب

عن هذا السؤال الإمام الشوكاني قائلًا: «لا أعلم أن رسول الله تكلم في شيء من معانيها؛ بل غاية ما ثبت عنه هو مجرد عدد حروفها، فعن ابن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»(٤٩)، ويذكر – أيضًا – أنه ما ثبت عن صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيء في ذلك، إذ لو كان عندهم شيء عن النبي في هذا لما تركوا حكايته عنه، ورفْعَه إليه، ولاسيما عند اختلافهم، واضطراب أقوالهم في مثل هذا الكلام الذي لا مجال للغة العرب فيه ولا مدخل»(٥٠).

الوقفة الثانية: مَن قال: إن هذه الحروف تدل على حساب الجُمَّل، وأنه من خلال هذه الحروف المقطعة تعرف مدة الآجال، وأن فيها توقيتًا للوقائع والحوادث، فأقول: لا يخفى بطلان هذا القول، وقد تصدى علماؤنا لهذا القول وردوه بقوة، فهذا ابن كثير يذكر أن من زعم ذلك فقد ادعى ما ليس له، وطار في غير مطارده، وبيّن أنهم اعتمدوا في ذلك على حديث ضعيف(٥١)، وهذا ابن حجر – كذلك – يرده برُمَّته قائلاً: «وهذا باطل لا يعتمد عليه، فقد ثبت عن ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- الزجر عن أبي جاد، والإشارة إلى أن ذلك من جملة السحر، وليس ذلك ببعيد، فإنه لا أصل له في الشريعة»(٥٢).

الوقفة الثالثة: قول من قال: إن ورود هذه الحروف بسبب ما كان من حالة كفار قريش من إعراض عن القرآن، وأمرهم باللغو فيه، فيُقال له: ما ثبت عن كفار قريش أنهم بعد سماعهم لهذه الحروف المقطعة أصغوا إليه، وكفوا عماهم عليه من الإعراض واللغو؛ بل إن الحروف المقطعة من أوائل ما نزل في الفترة المكية، ولم يُغَيِّر هذا شيئًا من واقعهم كما حكى ذلك القرآن عنهم مصورًا موقفهم الجديد من الدعوة، ومن صاحبها؛ بل ومن القرآن، وقد ضعّف ابن كثير هذا القول ورده، وقال: «لو كان كذلك لكان في جميع السور لا يكون في بعضها؛ بل غالبها، ثم إن هذه السورة والتي تليها «البقرة وآل عمران» مدنيتان ليستا خطابًا للمشركين فانتقض ما ذكروه بهذه الوجوه»(٥٣).

وكذلك يضعّف من قال: إن هذه الحروف كالاستفتاح والتنبيه، ويَردُّ ذلك بقوله: «لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم يُذكر فيه وفيما ذكرت فيه البسملة تلاوة وكتابة»(٥٤).

وهكذا لا يكاد يسلم قول من الأقوال التي ذكروها من ملمز ومدخل، وكأن الدافع لأصحاب هذا الرأي في ذكر هذه الأقوال أنهم يدافعون عن القرآن، ويتسابقون في تبرئة ساحته من وجود هذه الحروف المقطعة فيه التي حيرتْ العقول والأفهام، وقد كانوا في غنى عن هذا كله؛ لأن هذه الحروف كانت وفق أسلوب عربي معهود عندهم ومعروف، ولو كانت غير معلومة لتبادر – أولًا – صحابة

رسـول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ - وهـم الحريـصون كـل الحرص على تعلم أمور دينهم – لسؤال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن معناها ومغزاها، ولو كانت غير معلومة – ثانيًا – لوجد كفارقريش في القرآن مغمزا وملمزًا، يقـول السيوطي: «لـولا أن العـرب كـانوا يعرفون أن لها مدلولًا متداولًا بينهم لكانوا أول من أنكر ذلك على النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ بل تلا عليهم (حم فصلت، ص) وغيرهما، فلم ينكروا ذلك؛ بل صرحـوا بالتـسليم لـه في البلاغـة والفـصاحة، مـع تشوفهم إلى عثرة، وحرصهم على زلة، فدلَّ على أنه كان أمرًا معروفًا لا إنكار فيه»[٥٥].

والـذي تطمئن إليه النفس بعد هـذا رأي مَـن يسلم الأمر فيها إلى الله، ويرد العلم إليه، مع يقينه أن لهـا معنـى، وأن لوجودهـا حكمـة، ولكـنهم ينطلقون من المستند الشرعي، فإن وُجد وإلّا فإنهم لا يُقْحِمـون أنفـسهم فيـه، ولا يَـردون المهالـك، ويقـوي هـذا أن ممـن قـال بـه الخلفـاء الراشـدون، وبعض التابعين، ومشاهير المفسرين، وعلى رأسهم الحافظ ابن كثير، والإمام الشوكاني، بخلاف الرأي الثاني الذي حمل رايته بعض من اللغويين «وبعضهم يتكلم في تفسير كـل شيء في القرآن، ويتوسعون في القـول في ذلـك، حتى مـا منهم أحـد إلّا وقد قـال في ذلك أقوالًا لم يُسبق إليها، وقد تكون خطأً[٥٦]، لذا فعلينا قبل أن نجري خلف هذه الأقوال أن نسأل أنفسنا هـل ثبـت في هـذا شيء؟ وهـذا الـسؤال مـع إجابته يجعلنا ننطلق من قاعدة صلبة، تثبت أمام العواصف ولا تزعزع، ولا يكون عليها مدخل أو ملحظ.

ومما تقدم يتضح بجلاء رجحان الرأي الأول؛ لِمَـا فيه من التثبت، وتحري الدليل، بخلاف الرأي الثـاني، الـذي تعـددتْ الأقـوال فيـه واضـطربت، فذكروا معاني لهذه الحروف من غير مستند شرعي يدعمهم، ينطلقون منه، لذا فإن «مَن تكلم في بيان معاني هذه الحروف جازمًا بأن ذلك هو ما أراده الله – عز وجل – فقد غلط أقبح الغلط، وركب في فهمه ودعـواه أعظـم الـشطط؛ وذلـك أن التفسير يتوقـف عـلى صـاحب الـشرع، وهـذا هـو المـنهج الواضـح، والسبيل القويم، فمن وجد شيئًا من هذا فغير ملوم أن يقـول بمـلء فيـه؛ ويـتكلم بـما وصـل إليـه علمـه، ومـن لم يبلغـه شيء مـن ذلـك فليقـل لا أدري، أو الله أعلم بمراده»[٥٧].

فهذا ما أراه راجحًا من الرأيين، بيد أن لي وقفةً مع قول من الأقوال التي قيلت من أصحاب الرأي الثاني، وهو قول من قال: إن الحروف المقطعة إشارة إلى حروف الهجاء، أعلمَ الله بها العربَ حين تحداهم بالقرآن، أنه مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم، ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم.

وقـد ورد هـذا القـول عـن جمـع مـن العلـماء مفسرين ولغويين، ورجحوه على غيره من الأقوال،

ومن هؤلاء: قطرب[٥٨]، والفراء[٥٩]، والمبرد[٦٠]، والزمخشري فقد قرره ونصره، وذكر أن هذا القول «من القوة والخلاقة بالقبول بمنزل»[٦١]، وإلى هذا القول ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن كثير وذكر: «أن كل سورة اُفتتحتْ بالحروف فلا بد أن يُذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء»[٦٢]، ومنهم أبو السعود فقد اختاره، وذكر: «أن أهل التحقيق جنحوا إليه»[٦٣]، ومنهم: الزملكاني، فقد رجح هذا القول، وأشاد به، وذكر الأسباب التي دعته لنصرة هذا القول[٦٤]، وكذلك البيضاوي فقد ذكر أن هذا القول: «أقرب إلى التحقيق، وأوفق للطائف التنزيل»[٦٥]، وإليه ذهب ا لراغب الأصفهاني فقد ذكر أن هذا القول: «هو الأظهر وإليه ذهب المحققون من أهل اللغة»[٦٦]، كما ذهب إلى هذا الشنقيطي، ذاكرًا أن هذا القول «يدل استقراء القرآن على رجحانه»[٦٧]، وممن رجح هذا القولَ أيضًا الطاهر ابن عاشور: فقد ذكر الأقوال التي قيلت في هذه الحروف، ثم ذكر هذا القول، وبيَّن موقفه منه قائلًا: «وهو الذي نختار»[٦٨]، وإليه ذهب سيد قطب فقد ذكر أن في هذا القول إشارة إلى إعجاز القرآن وتحديه لهم[٦٩]، وإليه ذهب د. عدنان زرزور فقد ذكر أن هذا القول: «هو الذي يترجح عنده»[٧٠].

ولي مع هذا القول بعض الوقفات:

الوقفة الأولى: لابد أن يُعلم أن هذا القول لا يُعدُّ تفسيرًا للحروف المقطعة؛ وذلك «أن القائلين بهذا القول قالوا: إنها مجرد رمز لذلك، ولا يعني هذا الخوض في معناها، أو القول بتفسيرها»[٧١]، وقد أشار إلى هذا الطاهر ابن عاشور في تفسيره[٧٢]، وأشار إليه كذلك محمد رشيد رضا[٧٣].

إذن فهذا القول لا يُعدُّ تفسيرًا، يُؤكد هذا أننا حينا نتتبع أقوالهم حين يذكرون هذا القول وينصرونه نجد أنهم ينطلقون من نظرة استقرائية لمجيء هذه الأحرف المقطعة في القرآن، ولِمَا يأتي بعدها من الآيات، وما اشتملتْ عليه من المعاني، فهم لم ينظروا إليها مجردة؛ بل نظروا إلى السياق الذي جاءت فيه، نظروا إليها فوجدوا أن الذي يأتي بعدها الحديث عن القرآن الكريم، وبيان منزلته، ونفي الريب عنه، «ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يُذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه، وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء»[٧٤]، فلما استقرَّ ذلك عندهم، وجدوا أن بين هذه الأحرف وإعجاز القرآن صلةً وثيقةً؛ بل وجدوا بين دفتي هذه الأحرف نفسها إشارةً ودلالةً صريحةً على إعجاز القرآن وعظمتِه، وبعد أن تقرر هذا لديهم راحوا ينقبون ويفتشون عما انطوت عليه هذه الأحرف، وما تضمنته من إعجاز القرآن، ثم اكتشفوا كثيرًا من الأسرار والدرر، وهذه هي **الوقفة الثانية** فهذا الزمخشري يذكر أن هذه الأحرف تشتمل

على نصف أسامي حروف المعجم، وذكر أيضًا أن هذه الحروف الأربعة عشر تشتمل على أنصاف أجناس الحروف، ثم راح يذكر الحِكَم في مجيء هذه الحروف مفرقة على السور، ولماذا لم تأتِ جميعًا في القرآن؟ وذكر الحكمة كذلك في عدم مجيء هذه الحروف على وتيرة واحدة، وإنما جاءت بأعداد حروف مختلفة، ثم بسط القول في ذلك بأسلوب رائع وماتع[٧٥]، فهذه إشارة من الزمخشري لدلالة هذه الحروف على إعجاز القرآن.

ومما لحظه العلماء في ضوء هذا القول أن الحروف المقطعة قد افتتحت بها السور المكية ما عدا البقرة وآل عمران، وفي هذا إشارة إلى إعجاز القرآن وتحديه لهم، إذ قد بلغ إعراض المشركين عن القرآن غايته في الفترة المكية، كما بلغ تحدي القرآن وإعجازه لهم ذروته، فكانت هذه الحروف إشارة إلى هذين الأمرين[٧٦]، «ولقد كان العرب الذين يتنزل عليهم هذا القرآن يدركون أن هذه الحروف دعوة لهم للمنازلة والمساجلة وأن القرآن إنما زاد في إيراده للسور التي ابتدأت بالحروف؛ لأنهم زادوا في عتوهم واستكبارهم، كيف لا وهم المشتغلون بقضية القرآن ومواجهته ليلًا ونهارًا»[٧٧].

ومما لاحظه العلماء في الحروف أنها جاءت على أسلوب العرب في تراكيبهم ووضع حروفهم؛ إذ إن كلماتهم منها ما هو موضوع على حرف واحد، ومنها ما هو موضوع على حرفين، ومنها ما هو على ثلاثة، ومنها ما هو على أربعة، ومنها ما هو على خمسة أحرف، ولا أكثر من ذلك، وكذلك الحروف المقطعة جاءت على هذا النمط، لحظ هذا وذكره الزمخشري[٧٨].

ومما لحظه العلماء في الحروف المقطعة أن الحرف الذي تستفتح به السور يكثر مجيئه في كلمات السورة كلها، ويكون ذلك الحرف فيها بارزًا ظاهرًا كما ذكر ذلك الزركشي[٧٩]، وقد مثل ذلك بسورة (ص) فقد تكرر فيها الخصومات، ففيها: خصومة النبي ﷺ مع الكفار، والخصمان اللذان عند داود عليه السلام، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى، ثم تخاصم إبليس في شأن آدم صلى الله عليه وسلم ومن خلال هذا الملحظ يتبين اختصاص كل حرف بالسياق الذي ورد فيه، بحيث لا تصلح (ألم) بدلًا لسورة قد افتتحتْ بـ: (ألر)، وهكذا.

ومما لحظه العلماء فيها أن نزول هذه الحروف بهذه الصورة – نوعًا وكمًّا – كان مقتضى طبيعة المرحلة الزمنية التي تمرُّ بها الدعوة الإسلامية آنذاك، فكانت تتفاعل مع حالة القوم من الإعراض والصدِّ عن القرآن، كما كانت تتفاعل – أيضًا – مع تحدي القرآن لهؤلاء الأقوام بأن يأتوا بمثله «ولكنهم عجزوا وأُفحموا، وإنه لكتاب عربي مبين، ألفاظه من لغتهم، وحروفه هي حروف معجمهم، تلك الحروف التي تُقرأ مقطعة، مفردة أو مركبة، فلا تعطي دلالة ما، لكنها حين تأخذ مكانها في القرآن

يتجلى سرها البياني المعجز»[٨٠]، وقد أدركتْ هذا الملحظ الدكتورة عائشة بنت الشاطئ، من خلال استقراء كامل للفترات الزمنية التي كانت تنزل فيها الحروف المقطعة، وذلك من خلال تدبر لسياقاتها، وفهم لطبيعة المقام الذي اقتضى إيثارها بهذه الفواتح، ثم بيَّنت ارتباط هذه الحروف بسير الدعوة عصر المبعث[٨١].

وأخيرًا: فهذا شيء مما لحظه العلماء في الحروف المقطعة، وستبقى كتابًا مفتوحًا لمن يتأملها ويتدبرها؛ ليلاحظ فيها الأسرار والإعجاز لهذا الكتاب العظيم؛ وذلك: «أن أسرار القرآن لا تنكشف للناس دفعة واحدة، فالقرآن مثله كمثل هذا الكون الكبير الذي لا ينطق بأسراره مرة واحدة، وإنما يتكشف منه في كل يوم جديد حسب اجتهادات البشر في فهمه، ومدى تطورهم العلمي»[٨٢].

* * *

الهوامش:

(١) معاني القرآن: ١/ ١٧٠ للأخفش سعيد بن مسعدة.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١/ ٨٦، لابن جرير الطبري.

(٣) تفسير البسيط، ٣٨١، للواحدي.

(٤) الإتقان في علوم القرآن: ١/ ٦٥٨، للسيوطي.

(٥) انظر التحرير والتنوير: ١/ ٢٠٧.

(٦) انظر: تفسيره البسيط: ٣٨١، ويُروى هذا عن أبي بكر وعلي – رضي الله عنهما – والشعبي.

(٧) ويروى هذا القول عن علي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- انظر: معالم التنزيل: ١/ ٤٤، للبغوي.

(٨) ويروى هذا القول عن سفيان الثوري، وجماعة من المحدثين، انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١/ ٨٢.

(٩) ويُروى هذاالقول عن ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- انظر: التفسير الكبير: ٢/ ٣.

(١٠) ويُروى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود – رضي الله عنهم- والربيع بن خُثَيم، وأبو حاتم بن حبان، انظر: تفسير القرآن العظيم: ١/ ٣٨.

(١١) انظر: حاشية العلامة الصاوي على تفسير الجلالين: ١/ ٦.

(١٢) انظر: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير: ١/ ٣٢، لمحمد بن علي الشوكاني.

(١٣) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: ١/ ١٠١، للآلوسي البغدادي.

(١٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ١/ ٣١، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

(١٥) انظر: تفسير القرآن الحكيم الشهير بالمنار: ١/ ١٢٢، لمحمد رشيد رضا.

(١٦) انظر: البحر المحيط: ١/ ١٥٨، لأبي حيان الأندلسي.

(١٧) انظر الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٢٠٠، لأبي عبد الله محمد القرطبي.

(١٨) انظر: تفسير الجلالين: ١، لجلال الدين أبي بكر السيوطي.

(١٩) انظر: روح المعاني: ١/ ١٠١.

(٢٠) انظر: تفسير المنار: ١/ ١٢٢.

(٢١) انظر: فتح القدير: ١/ ٣٢.

(٢٢) انظر: المحرر الوجيز: ١/ ٨٢.

(٢٣) انظر التفسير الكبير: ٢/ ٣.

(٢٤) انظر: معالم التنزيل: ١/ ٤٤.

(٢٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه: ١/ ٦٢، و: معالم التنزيل: ١/ ٤٤، و: تفسير القرآن العظيم: ١/ ٣٩.

(٢٦) المحرر الوجيز: ١/ ٨٣.

(٢٧) انظر: معاني القرآن: ١/ ١٧٠، للأخفش.

(٢٨) انظر: معاني القرآن للأخفش: ١/ ١٧٠.

(٢٩) الأقوال من (٣-٨) ذكرها الطبري في تفسيره، انظر: جامع البيان: ١/ ٨٦.

(٣٠) انظر: تفسير البسيط: ٣٨٦.

(٣١) انظر: معاني القرآن وإعرابه: ١/ ٦٢، لأبي إسحاق إبراهيم الزجاج.

(٣٢) هذان القولان (١٢-١٣) ذكرهما الزمخشري في تفسيره، انظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ١/ ٩٥.

(٣٣) الأقوال من (١٤-١٦) ذكرها ابن عطية في تفسيره، انظر: المحرر الوجيز: ١/٨٢.

(٣٤) هذان القولان (١٧-١٨) ذكرهما الرازي في تفسيره، انظر: التفسير الكبير: ١/٦.

(٣٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١/٢٠٠.

(٣٦) انظر: التفسير الكبير: ٢/٣.

(٣٧) الفواتح الهجائية وإعجاز القرآن في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة: ١٧، د. السيد عبد المقصود جعفر.

(٣٨) أخرجه أبوداود في سننه: ٣/٣٢٠، في كتاب العلم.

(٣٩) تفسير القرآن العظيم: ١/٣٩٠.

(٤٠) مجموع الفتاوى: ١٧/٣٩٠.

(٤١) الفواتح الهجائية وإعجاز القرآن: ٣٤.

(٤٢) الفتوى الحموية الكبرى: ٣٠، لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(٤٣) أخرجه البخاري(١١/٢٥٦)، كتاب الدعوات، باب «لله مئة اسم غير واحدة»، رقم الحديث (٦٤١٠).
وأخرجه مسلم (٤/٢٠٦٢) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم الحديث (٢٦٧٧) باب في أسماء الله تعالى، وفضل من أحصاها.

(٤٤) سنن الترمذي (٩/١٧٣) كتاب الدعوات، باب أسماء الله الحسنى بالتفصيل، رقم الحديث (٣٥٠٢).

(٤٥) سنن ابن ماجه (٢/١٢٦٩) كتاب الدعاء، باب أسماء الله عزوجل، رقم الحديث (٣٨٦١).

(٤٦) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رقم الحديث (٣٥٣٢)، وأخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب في أسمائه -ﷺ- رقم الحديث (٢٣٥٤) ٤/١٨٢٨.

(٤٧) الإتقان في علوم القرآن: ١/١٦٦.

(٤٨) انظر: التفسير الكبير: ٢/٩.

(٤٩) رواه الترمذي: ٨/١١٥، أبواب ثواب القرآن، من حديث ابن مسعود.

(٥٠) فتح القدير: ١/٣٢.

(٥١) انظر: تفسير القرآن العظيم: ١/٤١.

(٥٢) نسب ذلك إليه السيوطي في الإتقان: ١/٦٦٣.

(٥٣) تفسير القرآن العظيم: ١/٤٠.

(٥٤) المصدر السابق: ١/٤٠.

(٥٥) الإتقان: ١/٦٦٤.

(٥٦) مجموع الفتاوى: ١٧/٤١٠.

(٥٧) فتح القدير: ١/٣١.

(٥٨) انظر: معاني القرآن وإعرابه: ١/٥٦.

(٥٩) انظر: زاد المسير في علم التفسير: ١/٢١، للإمام أبي الفرج ابن الجوزي.

(٦٠) انظر: التفسير الكبير: ٢/٦.

(٦١) الكشاف ١/٩٧.

(٦٢) تفسير القرآن العظيم: ١/٤١.

(٦٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ١/٢١، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي.

(٦٤) انظر: البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ٥٦، كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني.

(٦٥) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ١/٤٥، لأبي سعيد عبد الله البيضاوي، دارالفكر.

(٦٦) مقدمة جامع التفاسير: ١٠٥.

(٦٧) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ٣/٥، لمحمد الأمين الشنقيطي.

(٦٨) التحرير والتنوير: ١/٢١٢.

(٦٩) انظر: في ظلال القرآن: ١/٥، سيد قطب.

(٧٠) علوم القرآن مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجاز القرآن: ١٥٥، د. عدنان زرزور.

(٧١) وجوه التحدي والإعجاز في الأحرف المقطعة في أوائل السور ٣١، للدكتور فهد الرومي.

(٧٢) انظر: التحرير والتنوير: ١/٢٠٤.

(٧٣) انظر: تفسير المنار: ١/١٢٢.

(٧٤) تفسير القرآن العظيم: ١/٤١.

(٧٥) انظر: الكشاف: ١/١٠١.

(٧٦) انظر: في علوم القرآن: ١٥٦، د. عدنان زرزور.

(٧٧) الفواتح الهجائية وإعجاز القرآن: ٨٧.

(٧٨) انظر: الكشاف: ١/١٠٥.

(٧٩) انظر: البرهان في علوم القرآن: ١/١٦٩، للإمام بدر الدين الزركشي.

(٨٠) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية بيانية: ١٨٠، للدكتورة عائشة بنت الشاطئ.

(٨١) انظر: المصدر السابق: ١٦٠.

(٨٢) الفواتح الهجائية وإعجاز القرآن: ٢٠.

قصة التاريخ الهجري

بقلم: الدكتور/ مسعود صبري

عـرف الإنـسان التـاريخ منـذ وجـوده عـلى الأرض، ومـر التـاريخ بمراحـل متعـددة منـذ آدم إلى مبعـث النبـي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقـد أرخ أبنـاء آدم مـن هبوط آدم من الجنة حتى مبعث نوح عليه السلام، فكان هذا هو التاريخ الأول، ثم كان التاريخ الثاني من بعث نوح عليه السلام حتى الغرق، ثم كان التاريخ من الطوفان إلى نار إبراهيم، فلما كثر بنو إبراهيم أرخ بنو إسحق من نار إبراهيم إلى مبعث يوسف، ومن مبعث يوسف إلى مبعث موسى، ومن مبعث موسى إلى مبعث ملك سليمان، ومن ملك سليمان إلى مبعث عيسى، ومن مبعث عيسى إلى مبعث محمد على الجميع الصلاة والسلام.

وأرخ بنو إسماعيل من نار إبراهيم – عليه السلام – إلى بنيان البيت الحرام، ثم إنهم أرخوا من موت كعب بن لؤي فأرخوا من موته إلى عام الفيل، ثم من عام الفيل حتى أرخ بهجرة الرسول ﷺ سنة سبع عشرة من الهجرة.

وكانت العرب في الجاهلية يؤرخون بأيامهم، وحوادثهم، وكانت النصارى تؤرخ بعهد الإسكندر المقدوني، وكانت الفرس تؤرخ بملوكهم.

بداية التاريخ الهجري

والمشتهر أن أول من أرخ في الإسلام هو عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لكن هناك روايات تثبت أن أول من اهتم بالتاريخ في الإسلام هو رسول الله ﷺ، فقد ورد أن النبي ﷺ أمر بالتاريخ يوم قدم المدينة في شهر ربيع الأول.

وذكر الإمام ابن الصلاح الفقيه الشافعي أنه وقف على كتاب ذكر فيه أن رسول الله ﷺ أرخ بالهجرة حين كتب الكتاب لنصارى نجران، وأقر عليا أن يكتب فيه «إنه كتب لخمس من الهجرة».

ويذهب غالب المؤرخين إلى أن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هو من أرخ لتاريخ الإسلام بالهجرة بمشورة علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وغيرهما من الصحابة رضي الله عنهم، فقد ذكر ابن سيرين أن رجلا من المسلمين قدم من اليمن فقال لعمر: رأيت باليمن شيئا يسمونه التاريخ؛ يكتبون من عام كذا وشهر كذا، فقال عمر: إن هذا لحسن، فأرخوا. فلما أجمع على أن يؤرخ شاور فقال قوم: بمولد النبي ﷺ.

وقال قوم: بالمبعث. وقال قوم: حين خرج مهاجرا من مكة، وقال قائل: من الوفاة – حين توفى. فقال عمر: أرخوا خروجه من مكة إلى المدينة.

ثم قال: بأي شهر نبدأ فنصيره أول السنة؟ فقالوا: رجب فإن أهل الجاهلية كانوا يعظمونه.. وقال آخرون: شهر رمضان.. وقال بعضهم: ذوالحجة فيه الحج.. وقال آخرون: الشهر الذي خرج فيه من مكة، وقال آخرون: الشهر الذي قدم فيه.

فقال عثمان: أرخوا من المحرم أول السنة – أو السنة المحرم – وهو شهر حرام، وهو أول الشهور في العدة، وهو منصرف الناس عند الحج. فيصير أول السنة المحرم، وكان ذلك سنة سبع عشرة، ويقال سنة ست عشرة في نصف ربيع الأول.

فدل ذلك على أنهم اتفقوا أن يكون أول عام في التاريخ هو العام الذي كانت فيه الهجرة، وليس الشهر الذي هاجر فيه النبي ﷺ، ولكنهم أبدلوا به شهر المحرم؛ لأنه أول شهر في العام. ويدل على ذلك ما ورد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال في قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ (الفجر:١)، قال: «الفجر شهر المحرم هو فجر السنة». (أخرجه البيهقي في الشعب وإسناده حسن).

ولهذا السبب عدلوا عن التأريخ من شهر ربيع الأول الذي هاجر فيه الرسول ﷺ إلى شهر المحرم. وقد ذكر البخاري في تاريخه عن عبيد بن عمير قال: المحرم شهر الله وهو رأس السنة، فيه يكسى البيت ويؤرخ التاريخ ويضرب فيه الورق.

ويمكن الجمع بين اعتبار أن النبي ﷺ هو أول من أرخ، وبين تأريخ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرف التاريخ واستعمله، لكنه لم يعممه، بل استعمله فيما يمكن أن نسميه بالخطابات الرسمية، ولو كان التاريخ مشتهرا في دولة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأرخ الصحابة له أقواله كلها، ولوجدنا تاريخ الأحاديث التي قالها، والأفعال التي أتاها، ولحل لنا كثيرا من الإشكالات في السنة النبوية، ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استعمل التاريخ، لكنه ليس على نطاق التعميم في الدولة.

أما عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد اهتم بالتاريخ في الدولة، وجعله عاما، ولم يكن مقتصرا على الجوانب الرسمية فحسب؛ بل دخل أيضا المجال الاجتماعي وغيره من مجالات الحياة.

لماذا يؤرخ المسلمون بالتاريخ الميلادي؟ إن الأمة منذ زمن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ بل من زمن تأريخ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي تتبع التاريخ الهجري، وسارت الأمة على ذلك حتى تبدل الحال، وأصبحت كثير من الدول العربية والإسلامية قد هجرت التاريخ الهجري إلى التاريخ الميلادي، حتى أضحى كثير من المسلمين لا يعرف أي شهر عربي

هو فيه، فضلا عن أن يعرف أي يوم من التاريخ الهجري.

ولا يعرف على وجه التحديد متى تم ترك التاريخ الهجري.. لكن من المعلوم أن هذا حصل في بدايات القرن الماضي مع موجة التغريب والاحتلال الغربي لبلاد المسلمين، ذلك أنهم أدخلوا التاريخ الميلادي وأحلوه محل التاريخ الهجري في المعاملات والمناسبات والحياة اليومية، لربط بلاد المسلمين ببلاد الاحتلال الغربي المسيحي، ثم لما تركوا الاحتلال العسكري لبلاد المسلمين أوجدوا من مؤيديهم من يحاول أن يصبغ بلاد المسلمين بالصبغة الغربية، خاصة من الناحية الثقافية والفكرية، ومنها دوام استعمال التاريخ الميلادي المتبع في البلاد المسيحية، حتى يتوافق مع الغزو الفكري والتبعية لبلادهم.

ومازال هذا الأمر موجودا في كثير من بلاد المسلمين إلى يومنا هذا، وهو مما يطعن في خصوصية هذه الأمة التي جعل الله تعالى لها قبلتها الخاصة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ﴾ (البقرة: ١٤٥)، وقوله سبحانه: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ﴾ (البقرة: ١٤٨).

ولعل غياب التعامل بالتاريخ الهجري في الأمة يوجب على أبنائها إحياء تلك الشعيرة فيها، لأن التاريخ الهجري للأمة يرتبط بأحكام فقهية كثيرة، كالصيام والحج والزكاة والعدة في الطلاق وغيرها، فإن أحكام الشريعة تحسب بالأيام والسنين الهجرية وليس الميلادية، مما يجعل التعامل بالتاريخ الميلادي يوقع المسلمين في خطأ في الأحكام الفقهية، وقد أبان القرآن عن ذلك بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ (البقرة: ١٨٩).

ومن الشهور ما ذُكر صراحةً في القرآن وتعلقت به أحكام فقهية، كوجوب صيام شهر رمضان، في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ﴾ (البقرة: ١٨٥)، وحرمت الدماء في شهر محرم وغيره من الأشهر الحرم، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ (المائدة:٢)، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ﴾ (التوبة:٣٦).

فدل ذلك على أن الله تعالى أناط كثيرا مما يتعلق بالأحكام الفقهية من حلال وحرام بالأشهر القمرية، وليس الأشهر الميلادية.

بقية إشراقة: المنشورة على ص ٥٦

بنمائه أحاديث الموظفين وأمورهم الخاصة، وإبقاء المدير على علمٍ دائم بما يجري بينهم من شؤون خاصة وعامة. فكان أحدهم يخاف على نفسه و وظيفته، و يركز على الحذر ممن يأمنه ومن لايأمنه، وجعل يرى إخوان هذا الزمان جواسيس العيوب، فضاقت على كثير من الموظفين المخلصين في الشركة أرضها برحبها، وضاقت عليهم أنفسهم، والمدير لايهمه إلا التشفي ممن لايطأطئ رأسه له، ولايستسلم لأمره خيره وشره، بغض النظر عما فيه صلاح الشركة في المدى البعيد والقريب أو ضررها. ومما لايختلف فيه اثنان أن متابعة الموظفين في أعمالهم وأدائهم الوظيفي ضمان لنجاح الأعمال، وإيتائها الثمرة المرجوة المأمولة. وأما تصيُّد الأخطاء والإساءة إلى الموظفين، ومواجهتهم بما يكرهون، وتتبع عوراتهم، و زرع الكاميرات الخفية من غير مبررات شرعية؛ فإنه لايزيد العمل والعامل إلا فسادًا وخيانةً مع مرور الأيام.

ومن هنا وردت نصوص كثيرة بالنهي الشديد عن التجسس، وتتبع عورات المسلمين، فيقول الله تعالى في كتابه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات:١٢].

قال الإمام الطبري في تفسير: «قوله: (وَلَا تَجَسَّسُواْ) يقول: ولايتتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره، يبتغي بذلك الظهور على عيوبه، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره، وبه فحمدوا أو ذموا، لا على ما لا تعلمونه من سرائره».

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا» [صحيح البخاري: ٦٠٦٦].

وعن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم». فقال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفعه الله تعالى بها (رواه أبو داود: ٤٨٨٠).

وفي رواية عنه: إني سمعت من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كلامًا نفعني الله به، سمعته يقول: «أعرضوا عن الناس، ألم تر أنك إن اتبعت الريبة في الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم؟» (المعجم الكبير للطبراني:٨٥٩).

قال الإمام المناوي رحمه الله (فيض القدير ١/٥٥٩): «أي ولوا عن الناس ولا تتبعوا أحوالهم ولا تبحثوا عن عوراتهم... ألم تعلم أنك إن اتبعت التهمة فيهم لتعلمها وتظهرها أوقعتهم في الفساد أو قاربت أن تفسدهم لوقوع بعضهم في بعض بنحو غيبة أو لحصول تهمة لا أصل لها أو هتك عرض ذوي الهيئات المأمور بإقالة عثراتهم، وقد يترتب على التفتيش من المفاسد ما يربو على

تلك المفسدة التي يراد إزالتها. والحاصل أن الشارع ناظر إلى الستر مهما أمكن والخطاب لولاة الأمور ومن في معناهم».

وما أكثر عن السلف أقوالهم في ذم التجسس وتتبع العورات، فعن أبي قلابة أن عمر حدث أن أبا محجن الثقفي يشرب الخمر في بيته، هو وأصحاب له، فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجل، فقال أبو محجن: «يا أمير المؤمنين، إن هذا لا يحل لك، قد نهى الله عن التجسس». فقال عمر: ما يقول هذا؟ فقال له زيد بن ثابت، وعبد الرحمن بن الأرقم: «صدق يا أمير المؤمنين، هذا من التجسس»، قال: «فخرج عمر وتركه» (مصنف عبد الرزاق: ١٨٩٤٤).

وعن عبد الرحمن بن عوف أنه حرس ليلة مع عمر بن الخطاب فبينا هم يمشون شب لهم سراج في بيت، فانطلقوا يؤمونه، حتى إذا دنوا منه إذا باب مجاف على قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط، فقال عمر وأخذ بيد عبد الرحمن: «أتدري بيت من هذا؟» قال: قلت: لا، قال: «هو ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب، فما ترى؟» قال عبد الرحمن: أرى قد أتينا ما نهانا الله عنه، نهانا الله فقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات:١٢] فقد تجسسنا، فانصرف عنهم عمر وتركهم» (مصنف عبد الرزاق: ١٨٩٤٣).

وعن الشعبي أن عمر بن الخطاب فقد رجلًا من أصحابه، فقال لابن عوف: انطلق بنا إلى منزل فلان، فننظر، فأتيا منزله، فوجدا بابه مفتوحًا، وهو جالس وامرأته تصب له في إناء، فتناوله إياه. فقال عمر لابن عوف: هذا الذي شغله عنا، فقال ابن عوف لعمر: وما يدريك ما في الإناء؟ فقال عمر: إنا نخاف أن يكون هذا التجسس. قال: بل هو التجسس. قال: وما التوبة من هذا؟ قال: لا تعلمه بما أطلعت عليه من أمره ولا يكونن في نفسك إلا خير ثم انصرفا (الدر المنثور).

وعن الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتى عمر بن الخطاب رجل فقال: إن فلانًا لا يصحو، فدخل عليه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: إني لأجد ريح شراب يا فلان أنت بهذا؟ فقال الرجل: يا ابن الخطاب، وأنت بهذا ألم ينهك الله أن تتجسس، فعرفها عمر، فانطلق وتركه (الدر المنثور).

وعن ثور الكندي أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يعس بالمدينة من الليل، فسمع صوت رجل في بيت يتغنى، فتسور عليه، فوجد عنده امرأة، وعنده خمر، فقال: يا عدو الله، أظننت أن الله يسترك، وأنت على معصيته؟ فقال: وأنت يا أمير المؤمنين، لا تعجل على أن أكون عصيت الله واحدة، فقد عصيتَ الله في ثلاث قال الله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ وقد تجسست، وقال : (وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا) [البقرة:١٨٩]، وقد تسورت علي، ودخلت علي بغير إذن، وقال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور:٢٧]. قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فهل عندك من خير إن عفوت عنك؟ قال: نعم، فعفا عنه، وخرج وتركه (الدرالمنثور).

* * *

التجسس ... بين الهدم والبناء

لقيني صديق صباي بعد فترة من الزمن غير قليلة، وجمع الله تعالى بيني وبينه، وقد ظن كل منا بصاحبه أن لا تلاقي في هذه الدار الفانية:

وَقَدْ يَجْمَعُ اللهُ الشَّتِيتَيْنِ بعْدَ مَا ... يَظُنَّانِ كُلَّ الظَّنِّ أنْ لاَ تَـلاَقيـا

فجلسنا نتبادل أحلامنا، وآلامنا يبثها بعضنا إلى بعض، فكان حديثه عجبًا، وقصته أشد علي من وقع السهام، في غبش الظلام، وما لاتحتمله الجبال؛ قصة غريبة لولا عهدي به صادقًا لم أجرب عليه الكذب طوال مرافقتنا في الصبا لما صدَّقته.

قال لي صاحبي، وهو يلتفت يمينًا وشمالا ويتوجس خيفة أن يتسمع له من لايريد، ويتجسس عليه الجدران والحيطان، بعد أن استحلفني الأيمان، وأخذ علي المواثيق بأن أدفن ما أسمعه، ولا أنبشه ولو فيه ضربة العنق، وأكون له:

وإن ضيع الإخوان سرًّا فإنني ... كتوم لأسرار العشير أمين
يكون له عندي إذا ما ضمنته ... مكان بسوداء الفؤاد مكين

وأكون كما قال مسكين الدارمي:

وفتيان صِدقٍ لستُ مطلعَ بَعضهم ... على سر بعض كان عندي جماعها
يظلّون شتّى في البلاد، وسرّهم ... إلى صخرة أعيا الرّجال انصداعها

قال لي صاحبي: حصلت تعديلات إدارية في الشركة التي كنت أعمل بها، فنزل مدير جديد صاعقةً على الموظفين، فقلب الشركة رأسًا على عقب، وجعل عاليها سافلها، فكان من «أعماله العبقرية» أن نصب الكاميرات الرقمية في كل أنحاء المكاتب الخاضعة لإدارته، وبثَّ الجواسيس من صغار الموظفين إلى كبارهم على صغيرهم وكبيرهم، يلتقطون عليهم الأنفاس، ويحصون اللحظات، وينقلون له ما جلَّ وما هان على خلاف الواقع عن الأداء الفعلي في العمل، وبدأت الشبهات تحوم حول هذا الموظف حينًا وإلى آخر حينا آخر،

(البقية على ص ٥٤)

أبو عائض القاسمي المباركفوري